مروى وناسي

عن بقايا حلم أتحدث

نصوص

المعية
للنشر والتوزيع

الناشر: دار الالمعية للنشر والتوزيع –الجزائر

الكتاب: عن بقايا حلم أتحدث

المؤلف: مروى وناسي

الإيداع القانوني: السداسي الأول 2020

الردمك:**978-9947-50-059-0**

إهداء

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات...

إلى أبي الذي لا يشبهه أب بالعالم....

إلى أمي التي حملت معي راية الأحلام....

إلى إخوتي الذين لا نسخ لهم....

إلى أخت ورفيقة هذا المسار شهرزاد حماش التي أنقذت باخرتي يوما من الغرق والاصطدام بجدار الجليد ومنعت حدوث كارثة التايتانيك من جديد فأنقذت ركابي من الموت وكبريائي ومساري من الانكسار و التحطم

إلى كل من كان ملجأ أحلامي....

...

*مجتمعاتنا تسرق أحلامنا وتخبؤوها في جيوبها ثم بكل وقاحة

تصرخ في وجوهنا أن أيتها العير إنكم لسارقون إننا نفقد صواع الملك*

-مروى وناسي-

مقدمة

الكتابة هروب ولجوء من عالم لا تتحقق فيه جميع الأحلام بل أبسط الأشياء... دروب الحياة عكس طريق القلم، لا يخون القلم إلا نادرا... عندما تبكي الكلمات وتستعطف مشاعر جائرة أو عقولا عن الحقيقة غائبة... خلق الورق طاهرا... فلا يجب أن تدنسه الأقلام بذنوب اقترفناها في حق الحياة... القدر...الروح وحتى الجسد... الورق لا يطهر القلوب من الآلام والأحزان... إنما هو حقيبة تحفظ معنا الألم وتخفيه لتذكرنا به من وقت لآخر... فأحيانا نشتاق لذلك الألم عندما تغمر أيامنا سعادة كاذبة ... الورق لا يجيد تخبئة السعادة بقدر ما يحفظ جثث اللحظات الأليمة إلى أقصى مدة ممكنة ...ربما حتى بعد الموت ستظل تنشدها عند قبورنا... وهي لا تعلم أننا نعيش في عالم لم يعد يعتد بشيء مما كتب... أحيانا لا يجب أن نملأ كل الورق... فللصمت أيضا حق في الكتابة... ما أغربها... إنها أغرب الأمهات... وأغرب الأصدقاء... لكنها أجمل وأضخم الملاجئ... وأخطر الموانئ.

إلى كل الأقلام المبدعة...

إلى كل من تحدى العبث....

إلى كل من عشق التسكع في السماء...

أهدي هذه الدندنات.

كأي إنسان يتحمل أعباء كانت تخفيها له الحياة بين طياتها لتقدمها كهدايا تحمل بطاقة واحدة وكتب عليها "عليك أن تصبر كثيرا وتحتسب"... كان الخيار صعب جدا، أن أحصد شيئا لم أرغب يوما في زرعه وولوج عالم كرهته قبل دخوله، ماذا لو رفضت ماذا سيكون رد أهلي كيف سيكون مصيري وإلى أين سيؤول مآلي؟ كرهت كل شيء لحظتها وطلبت من الهدوء أن يكف الهدوء والصمت ويثور معي لأقنع أهلي أني لهذا القدر رافضة وخائفة لا أريده، هل هناك من يعذرني ويفهم شعوري حينها؟ كسرت الرياح أغصاني وعصفت الأمطار بدموعي واقتلعتها من عيوني ودفنتني مبتسمة لظلمة القدر ووضعت على صدري لحدا كان ثقيل الوزن لدرجة انه ذاب بين أضلاعي و صرت بعدها اسمنتا مثله تماما لا يحمل إلا جمودا وقساوة الحجر، لا يصلح إلا لبناء جدران صامته حول أحلام منصهرة حملت جسمي الذي لم أعد أعرف أعضاءه وأصبحت روحي غريبة عني تنوح على حلم ذهب مع رياح نثرته بعيدا عن أرض الواقع، قدمت الخطوة الأولى لدخول قدر محتوم فاستعنت بما زودني به الأقارب والأصدقاء من أفكار حوله فكان التصور لا يوصف فما بالك بالمكوث بين سرابه الخادع... نعم لقد مضت تلك الأيام بشموسها وأقمارها ونجومها الآفلة وأهلتها الضامرة التي سئمت انحناء رأسها لسواد السماء، وجاءت أيام حداد لا تنتهي... كانت مفارقة أهلي أصعب من ضياع حلمي وترك الجدران التي حوت كل حكاياتي وتحملت حتى الأخير مأساتي، تركت ترابي هوائي وشجر بيتي الذي كان يصفق للمسة يدي وتغريدة إنسانيتي

تجاه كائنات لا تعرف إلا الهواء والخضرة ،كل أشجار البيت لا تشرب إلا من يدي .دخلت علبة الكبريت فأصبحت عود ثقاب ينتظر الدور في علبته ليؤدي خدمة نبيلة ويرمى، رأيت حزن والدي وخاصة والدي لست معتادة أن أرى دموعه ورقرقتها في عيونه، زاد التهديد حولي وبدأ شبح الخوف يكبر، وبالمقابل صار جسمي يتبخر ويتمزق وصرت اسأل: لم يجب علينا أن ندفع ثمنا لكل شيء؟ كان علي تقبل الواقع كأي إنسان يشعر بمسؤولية تجاه مستقبله وحياته حتى وإن كانت تذبح ما يحب ويتمنى. تحولت كثيرا في عالم لا يعرفني فيه أحد ولا أعرف أحد، أعرف جيدا أن الهروب من أسوء الحلول والعودة إلى الصفر تعني الموت. فهمت جيدا معنى أن البكاء عند السلخ لا ينفع بعد الذبح، استرسلت العزف على الأصابع السوداء فقط والسماء تعصر مناديل العبرات فوقي فتحتضنها كؤوس السعادة علها تروي براكيني وتجمد الدموع في المآقي، عدت في نهاية الأسبوع إلى موطني تبادلت مع أهلي حكايات الفراق والغياب فأيقنت بعد صمت رهيب أنني أصبحت أكثر من جميل بثينة وقيس ليلى في النياحة واللوعة على الأهل والجيران، كانت كتابتي وسطوري ملاذي من جحيم مؤلم كنت هنا قد قسوت قليلا على قلمي وصيرته عبدا بعد أن كان صديق صرت آمره بالكتابة فقط ودون استفسار عما أكتبه متناسية أنه منهل كلماتي ومعلم حر، وفي... في طاعة خلجات النفس وسلطان أفكارها، ومع تشاؤميتي سادت سوداوية كلماتي ومشاعري وأصبحت سطوري مسممة بأفكار أشعر وكأنها غريبة عني محملة بمقت ليس ملكي ومكتوبة بعشوائية

وقسوة ليست من طبيعتي، بدأ كل شيء بسرعة و انتهى بشكل أسرع لم أفق إلا على الرماد و السواد و التحطم نتيجة عقلي المشوش والأغشية الشائكة التي أكلت بصري، هوت الساعات و تآكلت الأيام وخسرت ما حدث من أجله الفراق، ذهب سداسي الأول ضحية لروح معلقة بسقف السماء لا هي بحية ترفع إليها ولا هي بميتة تعود إلى الأرض التي أتت منها. براءة تلهو في الليل الدامس بين مقابر الأحلام تارة تعوي وأخرى تنشد النحيب ضعفت قوتي و قلت حيلتي وأكلت النار وقتي، ماذا أفعل كل ما جرى كان نتيجة لمرض بنفسي والتي استسلم لها جسدي بالإهمال و الخروج عن سلطان القدر، كل أفعالي تنفذ بطواعية مطلقة من روح متمردة عن واقع متشرد أصلا، لا أخفي أن هناك من استغل براءتي المريضة وروحي المسعفة وأوقد فيها نارا لا تنطفئ تمددت على سرير الماضي قليلا وناولتني أمي غطاء العزة و أسكبتني دموعا لا وجود لوعاء ليحويها أثقلت غطائي من فوق جسمي وجعلتني الحكم والمذنب أرى نفسي المغرقة في حزنها فأذوب حزنا وكمدا عليها وأراها بعين الحكم العادل فأحرقها باللوم الذي تبعثه عيوني سهاما تمزقها، أدركت أنني يجب أن ألبي نداء إيليا في قوله:

(كن جدولا رقراقا يجري ويسقي من جانبيه الحقولا)

(وكن وعاءا تستحيل المياه فيه وحولا)

من الصعب الخروج من دوامة لا يفهم فيها الشخص ذاته، ولا كيف سيستمر كل ما يحتاج إليه المرء هو قناعة صغيرة بما يفعل ويمارس. نصطدم أحيانا بأشخاص كالظلال لا تفارق مخيلتنا يرعبنا كيانهم لدرجة أنني أحب أن أحطم الأفكار الغريبة التي تجول في خواطرهم، مرت الأيام ومر صيفي بهدوء وسلام متجاهلة أنني فعلا أدرس لكي أصبح أستاذة نسيت أكملت، حاربت ذكريات العام الأول من الدراسة وجدت سعادة لا توصف عندما وجدت بأن هناك من يشبهني في بساطة الأفكار والتمتع بالتسكع على ضفاف الوحدة الجميلة، بعيدا عن ضوضاء البشر كنت أرصد كل من تعجبني تصرفاتها وأخلاقها وأختارها كصديقة أكمل معها طريقا ضيقا جدا يكاد لا يسعنا نحن الاثنتين. فعلا، لقد وجدت صديقة لا تشبه البشر كثيرا، لا أدري لماذا كنت أراها مميزة.... لا تعيش في عالم يشبه عالم جميع الطلبة، اتحدت أفكارنا وعواطفنا وأهدافنا دون إذن أي منا، صحيح نختلف كثيرا لكن في الاختلاف ندرك تميز الأشخاص، نجحت في إيجاد شخص ما يكون قادرا على استيعاب تقلباتي المزاجية وشخصيتي الحساسة، لكنني شديدة التعلق بهذه الإنسانة كيف أتصرف؟ أجبت نفسي بأن من السهل التحكم في مشاعري تجاه صديقتي لكن يبدو أنها تصبح الأقرب يوما بعد يوم، أخيرا وجدت مكان وربوة يمكن أن أسكن إليها بعيدا عن أهلي وأصدقاء الثانوية مع العلم أنني لم أكن كثيرة تكوين العلاقات الاجتماعية، لكن يبدو أن الجامعة تغير الكثير في الشخصيات والأساليب وحتى طريقة التفكير. بقيت مشكلتي في اقتناعي

بتخصصي لم أعر المسألة اهتماما... بدأ الصيف ينقضي وبدأت بوادر العام الجديد تظهر بدأ خوفي ينمو بنمو الأيام نحو السنة الثانية. يا إلهي؟ كالعادة نصبح لديارنا تاركين وعن مواطننا مفارقين و تصبح صور الماضي ذكريات جميلة لواقع مزعج جدا ،ما أصعب أن نستأنف حلما مرعبا يبعد النوم عن جفوننا طويلا و تضيق به الصدور و كأننا نصعد في سماء قبضت فيها روح أحلامنا الجميلة كنت أحلم بأن أدرس في" المدرسة العليا للقضاء" و الآن أجد نفسي لا أحمل هوية علمية ،لا أريد لقلمي أن يتعب أكثر لأنه ليس بمحترف كي يعرف كيف ينقل أحاسيسي بحرية أكبر، بدأت التجاويف تكبر في مساري وتولد في الظلام لتصنع مغارات تدفن فيها أحلامي و تطلعاتي ، سأقف هنا و لن أروي كثيرا عن شيء لم يولد أصلا كي يموت و بالتالي استطاعت صدمتي أن تضمحل و تحتضر يوما بعد يوم ،ليس لي الحق في اختيار هوائي ولا أرضي و لا حتى عنواني أو اسمي ؟بدأت أتقبل القبوع في زاوية أخرى من عالم أتيته مجبرة لكن سرعان ما أرغب في تمزيق كتبي و تعليق الكلمات على المقصلة و تركها تتعفن هناك ، و أحيانا أجد أن عيناي تتسمر على موقف واحد من الحياة اليومية التي تشبه الموت البطيء أقلب الكراسات و الكتب مجاملة للعبارات التي تحتويها و أمثل على نفسي بأنني فعلا أدرس كنت أمثل الخيانة بحد ذاتها ،و لم أكن أعي بأنني أشارك بقوة في تحطيم نفسي وإشعال نار كبيرة جدا ، لست اعلم؟ ادخل واخرج أفضل الهروب أحيانا وأخرى أمثل الحضور في الحقيقة كانت لعبة مملة ومتعبة لأنني عادة لا أحبذ

التمثيل وبالأخص على نفسي سرعان ما بدأت فصول المسرحية تظهر والمشكلة الكبيرة أنه بشجرتي لا توجد ثمار .... أيقنت ساعتها بأنني فقدت دور الفلاح وانتحلت دور السلطان أحببت الجلوس في كرسي الأماني ومراقبة أحلامي الزائفة تكبر وتتحقق ولم أنتبه إلى أنني عامل في أرضه الجرداء الميتة وعليه العناية بها حتى تكون صالحة لزراعة ما يرغب به القدر.

لن أطيل أكثر... ماذا أتوقع من مجاورة الخرافات تعرضت لأقسى العقوبات المعنوية والتي دفعت ثمنها من مخزوني النفسي والجسمي أيضا، الحياة برمتها جسر صعب العبور وسماء صعبة التسلق والمنال تعرفت في أحد الأيام إلى الفشل بعد أن كان غائبا عن ساحتي كانوا يصفونه لي كثيرا لكن كان كل من وصفه أعطاه أبشع الصفات، لكن هناك مسألة بسيطة لا يدركها الجميع ربما وإن كان هناك من يدركها فهم قلة؟ إن الفشل صديق عزيز أكثر من النجاح المتكرر والمستمر فهو أحيانا صدمة لقلوب تكاد تتوقف عن النبض أصلا. إنه لا يدع صاحبه يغادر بآلامه الحياة إنما يمنحه الحياة إن هو أحسن التعامل معه، كان من الصعب جدا أن أفتقد نجاحي ولم أجده؟

لكن كيف حدث وأنى تخلى عني وذهب بعيدا؟

خشيت أن ألتقي ذلك السيد المحترم المسمى فشل، صحيح أن الدموع أكلت جزءا لا بأس به من عيوني ووجنتي، لكن هناك دائما شيء ينادي في عمق كل إنسان يسمى ضمير، لا يسمح لصاحبه بأن يرفع شيئا أبيض وهو لا

يزال على قيد الحياة، أن تمشي في طريق لا تعلم إلى أين تأخذك أمر يجعل احتمال الزوال والاضمحلال نهاية قريبة ومحتملة، في لحظات لم أكن قادرة على استيعاب ما يحدث لي أرى ألوان العالم تتجمع في زاوية واحدة لتشكل إطارا أسودا يحد كل أنفاسي ولا يدعها تنفذ من أقطاره حتى ولو كنت سلطانة عليه، ماذا جرى؟ كل الابتسامات تتحول إلى لوم وعتاب يعذب عيوني و الأمر من ذلك أن لا تجد الكلمات لكي تبرر لأناس بلغوا من المعزة ما بلغوا بسبب الفشل ،رحت أبحث عن شيء يدعى مستقبل منكوب لأنتشله من مستنقع الضياع أريد أن آخذ منه أدلة ضعفي كي أستغلها في البحث عن نفسي من جديد لأجد الجرم الذي جعلني أدفع ثمن شيء لا أعرفه ،و في خضم هذه الكوابيس بقي هناك شيء واحد لم أخسره بعد و هو ثقتي بخالقي التي لن تذوب و لا ينقطع حبلي به مهما ألمت بنفسي النوائب ،أبواب مظلمة وجوه رثة مرقعة بتعابير وكلمات لست أدري من أين كانت تمطر ، كانت هناك أيد خفية تصطاد مع الغسق في مياه عكرة موحلة و تبيع في الصباح ما تصطاده على أرصفة التنكر بأثمان بخسة وأحيانا مجانا باسم الوفاء المغشوش والاهتمام المقولب.

هناك نقطة واحدة هي أن المصيبة تسقط بوقع على صاحبها يختلف عن وقع أي إنسان آخر مهما كان قربه ومكانته وهنا تصبح صفة الميوعة الأنسب إلى لفظ الصداقة، وهنا أصل إلى ختام آخر فصل من فصول مسرحية طالت أيامها وتعذبت لياليها وأسحارها وسقطت في سبيلها دموع لبت بكل وطنية

فيها رغبة كانت في نفس يعقوب وتقطعت أوصال لتلون ستار النهاية وبيدين متعبتين فككت رباط ستارين عن منظر وأفق لن يرسم له مثيل ثانية لتوضع تحته إمضاء بعنوان هذه الظلمات والمعاناة فعلا قد انتهت.

تستأنف الأعوام تسابقها وركضها نحو شيء لا زلت أجهله تغيب شمس وتشرق غدا أخرى تختلف كثيرا عن شكلها ولونها الذي كان بالأمس ....

لماذا تنبع أشعة مختلفة جدا رغم أنها من مشرق واحد، هناك أشياء تغيرت وتغيرت كثيرا ودعت قليلا سوداوية الحياة و كان ما ساعدني و أنا طالبة في السنة الثالثة جو مليء بالوحدة و الانطواء على أفكاري و نفسي التي تتعبني كثيرا معها، أتجنب كثيرا الحديث أو حتى التلميح إلى أناس سافروا بقاربي بعيدا وأبحروا عن عالمي الخاص قليلا، كانت كتاباتي وقلمي المتعب أهم شيئين وموردين أشبعا عطشي كانا جل ما أملك في لحظات يعجز فيها كل العالم عن احتوائي كانت كذلك أمي تكرر أغنية الإبداع على مسامعي كانت ترى جوانب كثيرة لم أكن أراها، كنت كلما أحاول الاستفسار عن ألغازها التي ترميها بين الفينة والأخرى تعطيني ورقة بيضاء وتذكرني بأن أنامل الإنسان تستطيع عمل الكثير غير الحمل والرفع والصقل وغيرها .....

وكثيرا ما كانت نظرات والدي تصنع ما بداخلي وترغمني على المواصلة فأنا لا أستطيع خيانة أعظم رجل في حياتي لم يكن أبي كبقية الآباء لم أرى منه

يوما سوى إيماءات خفيفة لطيفة تبعث بأشياء لم أفهمها إلا بعد ما حصل الكثير مما جعلني أحاول وأعايش من أجل أن أفسر من يكون ذلك الرجل؟

لا أستطيع أن أتحدث عن شيء يفوق سني بكثير ولم أره حتى وإن حدث فمن بعيد لم أعش أحداثا كثيرة ليست لدي تجارب تكفي لكن هناك ثورات ومقاومات في أماكن لم يأبه لها أحد ...أن أحاول مقاومة تيار يجرف الأموات ويتعب و يجرح و يدمي كل حي لا يريد الانجراف مع تلك السيول والتيارات أذكر جيدا عندما أخرج كل مساء عندما ينتهي دوام الدراسة ما يقارب الساعة الرابعة عصرا ،مع صديقة لي كنا ندردش كثيرا حول هذه القضايا و نتشاطر الرأي بأن كل إنسان في حد ذاته قضية وآراؤه تشكل ثورة وصوته عندما يردد الحق والصواب يشبه إلى حد بعيد قداسة الآذان مما يسبب تلك الرعشة والقشعريرة التي تخيف نعومة الجلد ’كل واحد فينا ملف ينتظر من يفتحه من يضعه في المقدمة و يبرمجه ضمن قائمة وجب أخذ ما فيها بعين الاعتبار، لا يستمد الفرد قوته من غيره وإن كان فحالات لا تُكرر ولا تسقط على جميع الناس بل من إدارة داخلية لكل الخيبات ولحظات الضعف والانقسام الأحادي والثنائي وغيرها.

كان جلوسي معها إعادة لترتيب خلط ما في نفسي، كنت لا أرى في غيرها الكثير مما تمتلكه، تحب الورد لكن شوكه أكثر وتحب صفاء السماء لكن تحب تلبدها الذي يبكيها مطرا تستحم براءتها تحته وهي تردد ،أنظري إن الحياة

جميلة بدأت هنا قناعاتي تتغير شيئا فشيئا وتقل درجة الأسود في حياتي لكن ظله يبقى يبعث بظلاله على رؤاي، وجاء اليوم الذي غير وجهتي عن مسارها واستقرت عند اللون الوردي، كانت إحدى كتب جبران تحمل عنوان "دمعة وابتسامة" هي من أعطتني عنوانا جديدا أخيرا استطاع جبران أن يمنحني شيئا من عذوبة الألحان التي تغلف أسلوبه في التغني بالآلام والأحزان وتعلمت شيئا جديدا أن أعيش سعيدة بأحزاني وأفرح بقدري حتى ولو ظلمت نفسي. قرأت وجدت متعة في المطالعة بعد أن انقطعت عنها لمدة تزيد عن ثلاث سنوات وصارت الكتب تستهويني أكثر من ذي قبل وأضحت الكلمات والأساليب تجعلني أنصهر وأحاول أن أنافس وأجاري أمثال جبران فيما يكتبون أن تصير لدي نفس قدرتهم في التعبير عن مشاعرهم والقبول بجميع الألوان في حياتهم حلوها ومرها، صرت أتردد كثيرا على المكتبات بل أصبحت وجهتي كلما سرت في شارع إلا وسألت عن إمكانية تواجد شيئا يشبه الكتب، صرت احتاجها كي تساندني وتساعدني كلما أقرأ تزداد ثقتي فيمن أقرأ لهم ...

وأحيا مع ما كتبوه وأضمه إلى مواقفي ليحيا من جديد، أضحى لدي نوع من الإحساس بالانتماء إلى الواقع تدريجيا إلى أن صارت تلك الزوايا والجدران والرفوف لا تفارق مخيلتي حتى إذا ما فارقتها إلى أهلي أحس بها تهمس في خواطر وتطلق نفسا ساخن جدا كلهيب يأتي من زواياها يشكو من ضيق ما... من فوضى تزعج أرجاءه وتجدني لا أستطيع أن آوي إلى فراشي وتتعثر كلماتي عند التعبير عن أشواقي، نعم كنت أتعب كثيرا لكن ماذا يساوي ذلك

كله في تلوين لوحة طال شحوبها وحزنها ويبس اللون الأسود عليها ومل البكاء على حوافها الندية، إنها أيضا أعادت ثقتي بنفسي وجعلتني أتعلم الكثير من صرامتها الموجعة نعم لم أفهم يوما من أين استمدت قوتها تلك. لم أجد لها تصنيف؟ مع البشر أم مع الأطياف العذبة ، كنت كلما أحاول أن أعرف عنها أكثر أجدني قد وجدت خبايا كنت أجهلها، طريقها غامض بعض الشيء لكن السير فيه رائع وممتع، وهنا تقودني هذه الأوصاف لسرد القليل عن الألم الذي يلم بأي إنسان عندما يجد نفسه مجبرا على مفارقة أناس لطالما عرف منهم الوفاء والكرم، في هذه اللحظات حقا تهرب الكلمات وتخاف الفراق مثل البشر وتختفي وراء الدموع المرتجفة، في هذا العام سأشهد فراق كل من رسموا معي طريقي بثبات وساعدوا خطاي المترددة على الوقوف بثبات كانت تمر الأيام ولم أذكر نفسي بأن لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان، من الصعب جدا وصف هذه اللحظات لأنها فعلا تحبس الأنفاس وتجعلها تخرج من ثقب إبرة... ما أضعف وأوهن الإنسان وما أسهل الاعتياد على وجود شخص ما وما أصعب مفارقة الكف التي لطالما رعتنا بحنان ومن الصعب أن ترى قطار صديق لك أو زميل سينطلق ويغادرك إلى محطة تتغير فيها حياته وحياتك بالكامل، وتجد كل أقواله وهمساته وآثار خطاه أجمل اللوحات التي ترسم له خيالا يدفع بالعبرات إلى التدفق دون توقف، تبقى كل كلمة يقولها مطلع لقصيدة لا تعلم ماذا ستصبح بعدما يختفي هل ستنمو تلك الكلمة إلى جمل أم تنتحر وتنتحب؟

وتتوقف عن ولادة الكلمات الجميلة؟ أكتب كل هذا و لم أفتقد بعد التفاف أصدقائي حولي لأنه مازالت بعض الأيام تنبض بيننا بنبض ضعيف يطمئن بأنه لم تزل فرصة بعد إلى سماعهم ورؤيتهم لأنهم حقا مدرسة و بحار من الأمل المملوء بالورود والزنابق التي رسمناها بألوان تخصنا جدا ووضعنا بها عطورا لا تباع ولا تشترى ، فرغم أننا تعاهدنا على القوة والصبر والأمل إلا أنه من الصعب أن يجد الإنسان نفسه يواجه أصعب قرارات القدر ،سأبقى وخالقي بعدهم سأفتقد رفقة البشر بعدهم لأنه لا يعوض عن غياب القلوب الوفية وبراءة المحيا إلا رفقة من خلق نسمات مثلهم و نعم لا نتمنى ولا نتخيل زوالها يوما. تتشابك أغصان الحياة كشجرة الأيك التي تتشوه الجلود عندما تحاول إبعاد ذلك الحنان عنها... نعيش، نتألم، ونتجاوز وفجأة نجد أنفسنا بأننا احتجزنا في فواصل واستثناءات ليست لها قيمة كتلك التي تضع مسار الحياة وتضع لها العنوان، لا يتقدم العمر في هذه المرحلة فقط بل تنمو معه أغصان جديدة تتسلق بسرعة كبيرة تلك السنين حيث تطور الرؤى وتحدد وتفطم عن رضاعة براءة موجعة متسولة، أحيانا يحس الواحد منا أنه لا يملك الخيار هل يهرب أم يوازي ذلك الخيار سيرا أم حبوا؟ فإن قبل بالخيار الأول كان دون كيان _جسما هلاميا تلتصق به كل الأفكار صوابها وخطؤها وإن قبل الخيار الثاني سيتعب كثيرا، سيبحث عن إعانة ومساعدة خارجية وداخلية تساعده وتقنعه بما يختار وتبرر له ما يفعل كلما أحاول مسايرة العوارض والطوارئ أجدها تزداد تضخما وسوادا وإبهاما، وأقف مشدوهة بالأخص عند ذكر

الديار ولكن ما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار.... في مكان غير بعيد، يختلط فيه الليل بالنهار ليصنع قهوة الصباح وتوضع في فناجين يختلط فيها الحلم والحقيقة والكذب والصدق و انقلاب مخيف للموازين المعهودة اختلط كل شيء لدرجة تجعلني أهوى عودتي إلى طرقات بلدتي إلى معانقة حوانيتها وزوايا طفولتي فعلا أجد أنني أحيانا أحتاج إلى النسيان أو بالأحرى التناسي والابتعاد عن دمن جعل منها التقليد والانسلاخ أشباحا هزيلة تقف باكية على زمن ولى ومن الصعب وليس من المستحيل أن يعود لست أدري لما يكتحل سواد متعب قمم تلك الجدران ،كنا في خيمة بسيطة نستظل بعيدا عن الانفلات نستجم، مصابون بالعمى و الصمم كالطفل الذي يلعب في روضته ولا تربطه بالعالم الخارجي صلة، فرغم ذلك الضيق في المساحة هناك زوايا تلعب فيها نفوس لا تعرف للعفة وجه ولا للكرامة عنوان، كانت منافسة شديدة تحدث في صمت من أجل البقاء داخل إعصار قاتل ويصعق المقاومة بالكهرباء، هناك من يتعب بسرعة ويمل ويستسلم فيلاطفه التيار ويتماشى معه من غير إباء ورفض. لكن الخروج بعدها إلى ظلام حالك يصيب بالعمى كل من يحاول إشعال الأنوار فيه، والاتكاء على جدران شديدة الهشاشة وينخرها نحيب الرياح من الداخل، أذكر جيدا أن هناك شخص ما همس في أذني وقال: إنهم يقولون إننا في مكان ننتظر الدور ولكن لنا الخيار في أن نكون من نتبع أو من يتبع؟ لنا الخيار في رسم ظلالنا كما نشاء وفي تلوين أشكالنا كما سطرت لنا الأيام، وهنا أذكر قولا رائعا للدكتور طارق

الحبيب بروفيسور نفسي عندما يقول: لنا الخيار في أن نكون انعكاسا لمشاكل الحياة وكذلك نحن مخيرون في أن نجعلها انعكاسا لنا. حاضرنا أقدر على إمدادنا بزوابع من حقائق لا تنتهي ودموع لا تنضب، سأدع سطوري تكمل طريقها وأعلم أنها من حقائق مرة ستتعب فالقصص والروايات في كل مكان تتناثر هنا وهناك فلماذا نبخل على الأوراق ونعطي للأقلام عطل لا نحتاج إلى من يجسد كل تمثيلية، فالحياة والواقع ركيزتان ثابتتان في كل جنس أدبي بل هناك أيضا القصص القصيرة والقصيرة جدا تمثل في كل زاوية وزقاق، أحيانا أفقد نفسي بين الأزقة ومنعطفات الشوارع، وأبحث عن معنى لما أرى وأسمع أو ربما أتوهم ، كم أتمنى أن يصبح خيالي حقيقة تنمو على أرض الواقع بسلام تنمو بين غابات مفترسة وتخنق جذورها المسمومة حتى الموت، لا يكفي الآن شرب قرص يفور في المياه أو موت على سرير التمثيل والاحتجاب وراء ستائر التناسي، أصبحت الحقيقة تحتاج إلى الحقيقة و الواقع يتمنى أن يصير واقعا لا يشبه الرياح والفضاء والعدم ،إنه نفس اللحن يجوب الأروقة و يرش زواياها الصمم و البلادة لتصبح الحياة أجمد من صنم، هناك صوت يبعث به الصدى لكن لست أدري ما هو؟ يشبه الصهيل وأحيانا الفحيح و أخرى صوت الجرس، الأرض تشبه الشباك وكل الخطوات فيها تتعثر وتحاول المضي، هناك شرقات تتكرر وسببها شوكة في الحلق لا تزال بين شرايينه تستقر... أعود من جديد وأستفيق بل اخرج من دوامة أفكاري كسباح من التجديف قد تعب و مل لأعود من جديد إلى الشاطئ المزيف وأنظر من بعيد إلى أفق من حلم

فأشتاق للسباحة و العودة مجددا فحنين التجديف مجددا ينادي ويدعوني كي اعبث بين أمواج بحر لا يعرف إلى أين سيستمر، نعم سآتي لكن أفضل أن أدندن مع قطرات المطر، خفيفة، لطيفة أجل... لكنها تحمل أخبارا لا يعرفها أقصى مكان في ظلمة البحر. كل قطرة تسقط فوق كتفي وتربت عليه وأنا في طريقي إلى مدرستي أجمعها بين طيات روحي وأجعل لها عيوني أجمل العلب. ترى لماذا تنزل أيها الغيث كثيرا لكنك لا تسقي إلا القليل مهلا؟ من أين تنزل؟ أحيانا أنام على جفاف مؤلم جدا وتجاعيده مخيفة جدا وأخرى تعلق فيها قدمي من شدة تراكم الوحل.

لا أحب عادة الكلام الذي ينام على هوامش الصفحات والذي يختنق بين الحروف أثناء المحادثات، بل أحتاج إلى إبر تسيل دماء كلماتي لتفيض بدلالات أجمل، تجعلني أطير نحو خيال آخر أستطيع البوح عنه بكلمات أخرى.

سأعود من جديد لأتذكر بأنني ضائعة أبحث عن وصف للحياة يليق بآلامها وتعبها، دائما أتساءل لماذا لا تكون الحياة كبائع العطور لا تعطي إلا طيبا وأريجا، لم يؤلمني شيء ولن يؤلمني أكثر من الوداع إنني حقا أخافه و كثيرا ما أهرب منه وأجد بعدها نفسي لا أجد التفسير، بعد قطع هذه السنوات الثلاث كان ثالثها صعبا على نفسي وأيامي بالكاد تتنفس فيه بصعوبة بالغة مزقت رقة قلمي وحجرته عن الكتابة وتوقف هو الآخر معي يتأمل ويسألني

كيف الاستمرار والمضي بعد هؤلاء، أتهرب كعادتي من المواجهة فربما لأنني جبانة أو حساسة أكثر من اللازم ، و أنا أجر هذه الكلمات المتعبة لتصف حال طريقي لا أعرف بعدهم إلى أين سأنتمي أو أسير في هذا الحين لا أحب سماع أو رؤية أي شيء يساعدني على التألم أكثر أصبحت أسترجع كل كلمة أسمعها أسقطها بجمال على أرواحهم وأنفسهم الطيبة و كل منظر أرسم لهم فيه صورة جميلة، صورة وأنا أركض معهم كما كنت أفعل سابقا، سعيدة باللقاء والبداية ومتناسية تلك النهاية و أن هناك فراق ينتظر من مكان غير بعيد و كل يوم يلوح غروب تلك الأيام من وراء أفق حزين كانت هناك العديد من الأشياء المميزة في هذا العام لأن محور حياتي تغير وبناء حياتي اختلف كثيرا و لم يعد كسابق عهده ، لكنه عام الحزن ،أشبه بعاصفة هبت علي فأخذت كل أحبابي و زملائي ، ووجدت نفسي أتوسل غضبها وسرعة ترحيلها لهم بأن تبقي لي شيئا من جذور أيامي معهم.

كم سيء ذلك البكاء الذي ذرفناه في دخول هذا العالم الغريب الذي يختلف عن باقي أيام حياتنا في أسرنا بين أحضان الأمور الجميلة والعادية لكن الأسوأ أنهم لم يخبروني بأن الخروج منه أقسى ولا يتحمله حتى من هو أسطورة في الصبر، تحتاج أشياء كهذه إلى إيمان عالي، إلى إيمان بأن الله وحده من يبقى لكل البشر إنه نعم الأنيس والرفيق وكلما آلمني ذلك القول "رب أخ لم تلده لك أمك ".... لكن تعقبه دموع فتكتب كما تكتب الأمطار على المياه أن كل ما يبكي الإنسان و يؤلمه فهو "ابتلاء" فأسعد و أقول إذن هناك جزاء

للابتلاء فأكتب على الرمل آلامي و على الحجر أمنياتي وأحمل عاليا رأسي وأنتظر أن تأتي فراشات الأمل لتحمل بين طيات أجنحتها الملونة خالص دعواتي لكافة صديقاتي و زميلاتي و كل من جمعني ربي ومدرستي بهم أن يظلوا سعداء وأن يثبتوا إذا حلت المصائب حتى نلتقي في ديار لا يوجد فيها شبح الفراق، لكني اكتشفت شيئا مهما عندما اختبرت عواطفي وقدرتي على مدى التحكم فيها عندما أدركت أن الإنسان ضعيف وحده قوي بغيره لم أكن لأستطيع تقبل كل هذه الشقوق والتصدعات التي تصيب قلوبنا و تعذب أيامنا لولا أني رأيت تلك الأحزان التي تخفيها الأغلبية و ذلك التحطم الكبير الذي يغازلونه كي لا يرتفع أنينه إلى الخارج ويتفطن له المارة فيزيدون من اشتعاله بتربيتهم ودعمهم الذي يكتنفه الضعف أيضا، ما أصعب أن تخسر أشياء وتصبح مثيرا للشفقة عندما لا تستطيع التمثيل والكذب على الحياة قليلا، يجب الاستمرار لأنهم يقولون دائما تلك هي الحياة وطبيعتها لم يقل لي أحد منذ كنت طفلة بأن الحياة حلقة من الأمور المؤلمة حتى السعادة فيها موجعة ونهاياتها قليلا ما تنتهي بابتسامة ،أتكلم كثيرا وأثرثر على الأوراق دون أن أبلغ ما أريد ،لِمَ هل لقصور أصاب تفكيري أم لغتي هي التي تعبت ولم تترك لي مجالا ولم تعد تريد مسايرتي في التعبير عن عواصفي؟ التي جعلت مينائي يضطرب دائما وكلماتي تتصارع عند الحواف والمراسي لا هي تذهب بعيدا ولا هي تقفز وتمسك باليابسة وتشم رائحة ذلك التراب الندي الذي يرتاح فيه كل من تقبل قدميه ملمسه، لم أستطع أن أعبر عن فقداني لصديقتي"شهرزاد"

خاصة و باقي صديقاتي "نسمة" و "نعيمة" و غيرهن أريد أن أمنح لذكرياتي الجميلة معهم أن تعرفهم قليلا و تلون صفحاتي بتصرفاتهم المميزة لكن أجدني لازلت أهرب و ألتف حول كلماتي و أتدثر بالتناسي سأتذكر كم كنت أخاف أن أفعل شيئا خاطئا أمام صديقتي نسمة فكثيرا ما كان يعجبني ذلك القلق الذي يرتسم على وجهها عندما أسرق لها شيئا من أشيائها أو أتوسلها كي آخذ شيئا أعجبني كانت تضرب بشكل يبكي و يؤلم إنها عنيفة بعض الشيء لكن مع حلاوة لا تخفى على أحد كنت كلما أريد كسر شيء أو قلعه من مكانه إلا و ناديت عليها صحيح أنني كنت أنزعج منها خاصة عندما تدق باب غرفتي و تبدأ في خلق الفوضى بين أغراضي وتأخذ غطاء الرأس الذي يعجبها دون إذن مني في كثير من الأحيان لم أكن قريبة منها ما يكفي لكنها دخلت حياتي في سنة تخرجها فأحببتها أكثر وأدركت أنها شخص ثمين ولا يوجد كثير ممن يأخذون ملابس الناس دون علمهم ويضربون بذلك العنف الكبير و يحبون بذلك القلب الطيب الجميل كانت ممرضتي كلما دق المرض على جسمي أو كنت بحاجة إلى أحدهم كانت تغيب عني أيام بل أسابيع لكن روحها ماكثة معي طول الوقت كان لها حظ كبير من اسمها كانت نسمة من نسمات المحبة والرفق النادر جدا تهب على كل زميلاتها و تستمتع في جعلهن يبتسمن ويتفاءلن و لم أذكر أنني رأيتها في موقف ضعف أبدا كانت تتمتع باحترافية كبيرة في إخفاء ضعف يمكنه أن يشوب هدوءها المعتاد وإلى هنا يجب أن أتوقف لو أستمر في الحديث عنها تتمزق أوراقي من شدة الثقل

وسأجد نفسي أتنقل بين الحفر بخوف من أن تقع كلماتي خارج الورقة وتصطدم بوجه الخشب القاسي.... وتتوارى خلف هذا السرد اللطيف والمقصر أحيانا إنسانة لا أعرف ماذا أقول عنها أحبها كثيرا لأنها الرفيقة المميزة طيلة الثلاث سنوات الأولى لكني أفضل أن أبعدها عن قلبي وذاكرتي كثيرا كي لا تجرني ذكراها بعد رحيلها بعيدا عن عالم البشر لأحتجز في مكان أيام لا تعود و ذكريات قاسية جدا على نفسي ،أحب أن أضع لها دائما اسم الغياب بدل الحضور و أكتفي بتسميتها" بصديقة الجنة " أذكر أنه في يوم من الأيام رافقتني في جولة قصيرة، وكنت محظوظة جدا أنها كانت بجانبي فكنت كلما تقدمت معها بضع خطوات إلا وشعرت بعزة تغمرني وحياء يتنزل علينا غيثا مدرارا، أدركت حجم النعمة ونعمة الصداقة أحسست أنها تضيف شيئا لهويتي تمنحني عنوانا ما. فقلت في نفسي: نعم ستذهب بعد أيام قلائل وربما لن أراها مجددا لكن لا يمر أي إنسان بحياة أحد منا إلا وترك فيه بصمات تخصه. شيء من هذا القبيل يترسخ لديك، أحيانا أجد نفسي جزء لا يتجزأ من أناس لهم رقي في التفكير وسمو في المعاملات بحيث يجعلونني أنافس سموهم وأغبطهم على حسن أخلاقهم ولم يعلموني الحسد ولا التقليد يوما... كُلٌ أرسل لي رسالة معينة أو رمقني بنظرة غيرت في مساري الكثير، هذا لا يعني أنه لا يوجد الكثير ممن يسدلون الستائر المظلمة على عيوننا بل هناك من يسعى لأن تمتد الليالي وألا يبزغ الفجر ثانية.....غريب؟

إن أجمل ما في القلم حين يكتب، إخلاص لسانه وسريرته، فالكتابة بمداد" لين" تفسد بياض الورقة وتملؤه ولا تترك فراغا للصدق... وقسوته تجعله يتكسر مع أول كلمة. الصدق في الكتابة يصب في نقطة واحدة هي أن تخبر الناس أن الحياة عذاب أكثر من نعيم لقوله تعالى:" إِنَا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدْ أَيَحْسَبُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى" وتُنَاغِمُهَا حروف أخرى جمعت بنفس رونقها وانتظمت لترد وتقول... يقول تعالى في سورة طه:" طَهَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى" جميل أن نؤمن بأن الحياة لوحة من بياض، وهم يقود أنفسنا إلى الجنون بسعادة مطلقة وحزن مطلق، الحياة برمتها تبنى على النسبية وهذا ما أكسبها جمالا وأعطاها تميز.

الانزياح عن الحقيقة انتحار بطيء على الأوراق والغرور يقتل كل شموخ ورفعة، هناك معادلة تطرح نفسها دائما رغم نسبيتها، لماذا لا يستطيع التمثيل أن يعيش طويلا ويعمر؟ حتى هواته سرعان ما يترقبون إسدال الستار، لست أدري لم يلجأ الكثير إلى التنكر والاستعارة والمجاز، ألا يدري هؤلاء أن الوجوه تتعذب بسواد القلوب وأن العيون تفضح خباياها ....

من الأجدر أن نعيش الحقيقة وليس الوهم و أن نكون تعبيرا حقيقيا لا مجازيا وأن نكون أجساما تلمس لا أرواحا لا نحس بها إلا عند الحفر و الجدران والمغاور ،حاولت أن أقنع نفسي بأنني أنا من لا تشبه البشر أنا من تعيش في أوهام لكني بحثت _و خاصة في محيطي الجامعي_ فأدركت أنني حقيقة تعيش

بين أوهام و أجسام مزيفة تركض وراء حقيقتها ،تتلذذ بتقمص أدوار ليست لها، إن أغرب مجمع أو محتشد بشري صادفته هو هذا المجتمع الصغير في حجمه والكبير في قضاياه وآفاقه... يصبح فيه الشخص البسيط عنوانا لرواية جديدة وبداية نحو انطلاقة مغايرة تماما لماضيه و العكس يأتي العديد عناوين ويصبحون صورا في غلاف، عجبا لهذه البيئة كيف تقلب الموازين يمجد فيها كل من ليس له تاريخ بطولي أو حس أدبي إنساني كيف لا وهي التي يصبح فيها الفراغ تاج يوضع على الرؤوس والحماقة رداء ملكي يثقل كواهل أصحابه، ويصبح الفقير المعدم إلا من أفكاره وإنسانيته النادرة من حاشية الفراغ الذي يملأ كرسي العرش فيظل يسقي التشتت والأفكار المهترئة.. حتى يمل الكأس السقيا، ومما لفت انتباهي أيضا تداول كلمة "المسؤولية" كثيرا واقتصارها على الأعمال الشاقة أو تحمل أعباء أسرية لماذا كل هذا الجهل بالمسؤولية؟

هناك مسؤولية من نوع خاص ربما لا يعرفها الكثير، ألا تعلم الطبقة المثقفة، أن الأخلاق، الوفاء، العلم، الإشادة بالتفوق، والإخطار بوجود الفشل من أعظم المسؤوليات على الإطلاق ليس من السهل على الإنسان أن يثبت في جميع المواقف ويقوى على جميع المحن ويصنع دستورا خاصا به ليكون رعية على تطلعاته. أليست مسؤولية أن يحيى المرء من أجل المروءة والتحلي بأخلاق الجاهلية؟ فما أجمل هذا القول: ليتنا مع إسلامنا لنا أخلاق آبائنا في الجاهلية ليتنا كنا مسؤولون عن أخلاقنا الخائنة لأصولها العربية الجميلة، أليست مسؤولية أن أغيث لهفان وأمسح دموعا انبجست من مقل أضناها الكرى وعذبها موت

الضمير؟، ألم يكن من المفروض أن نحيط الناجحين بالمرايا عوض أن نحيطهم بألواح خشبية تقرضهم مساميرها كخراف لا مصير لها ولا نهاية لها إلا الموت وإقامة الولائم على شرف إبادتها؟

لا زلت أستغرب وها أنا أنزل من جديد إلى البحر الذي ضربتني أمواجه مئات المرات ولا زلت أستمر بالسباحة واحتمال الصفعات، طمعا في أن أجد جملة جديدة أبتدئ بها سطرا بريء، كنت كثيرا ما أرتطم بالجدران ويتقاذفني صمتها الكئيب بين زواياها الحادة جدا، ما أسوأ أن تظل الأفكار والرؤى تركل بالجهل والإهمال بين هذه الزوايا وتتمنى شروق الشمس يوما، كم أحترق عندما أقرأ حروفا متناثرة هنا وهناك تهب عليها لحظات النسيان وتطويها بعيدا أنفاس خائفة وقلم مرتجف يخاف، لست أدري مما يخاف كل شيء لديه ليكتب لكن نسيت شيئا.... لا يملك شجاعة تكفيه ولا من يقول له اترك الدموع الزئبقية والفحمية تكتب بلغة الصدق، بلغة التحرر.... قيدنا في كل ما يتعلق بإنسانيتنا وليس فقط علامات تختم عاما كاملا من العبثية الفارهة، أين أصبحت ساحة طلب العلم عالم لاحتراف تسول غريب، بكل الطرائق تمنح التأشيرات لعبور بوابات لا علم لأهلها بما فيها ولن يعلموا لأنهم دخلوها أصلا دون جواز سفر. لست أدري لم أصبحت الورود تنمو في الكؤوس الجافة وهي تعلم أنه لا حياة بين جوانب زجاجية أين أصبحت الأقلام تتمنى أن تكتب بلون الزهر ورائحة العبير.... تمنى القلم فعلا أن يرجع كما كان من خيزران جميل أو شجر عريق تخضبه أصالة تقطر حبرا، تكتنفه محبرة نحاسية أو فضية

لها رائحة التراث والقدم. ليس هذا فقط بل أن يكتب لأجل أن تحفظ النفس عزتها بشكلها القديم الرائع.

كم أتمنى أن أكتب العالم الذي أهواه و على طريقة لا أريد لأي كان أن يتخيلها في ذهنه لأنه حينها سيسرق شيئا حاربت جاهدة لرسمه و وصل خطوطه ببعضها و ربطها بجسور من الوفاء كي لا تضيع الأوصاف في غياهب الخيال كثيرا، في هذا المحيط المظلم و الميت لا يسعني إلا الاحتفاظ بشيء يشبه حلما قديما قد أمسكت أطراف ثوبه المهترئ إنها حارة مباركة زواياها تركن عندها الأماني الضائعة لتستفيق على غد أفضل تكتسي عند محرابها أجنحة مزقت خشونة الشرانق بحدتها وشفافية أبعادها الفكرية، أصبحت لا أعرف من أكون إلا أنني باحثة عن ماض كنت أدعى فيه بشر، أرى أنه لا تليق بالإنسانية أن تسمو لدرجة الملائكية المطلقة، ربما هناك وسيلة واحدة لكي يكون الواحد منا يشبه الملاك هي أن يؤمن بأن الخطأ و الزلل من شيم الإنسان العاقل المثالي، ليس جميلا أن نسجن الأماني في فوانيس لتضيء لياليا المعتمة ألا يوجد من يحتاجها غيرنا ؟ رأيت من الناس الكثير، الذين يستسلمون بين أنياب الحياة كثيرا ودون أدنى مقاومة يكتفون فقط بقول: لم أعد أستطيع؟ كيف لي أن أستمر؟ كان هذا المرض له قليل من النفوذ في نفسي فقد كنت أجعلها تركن للضعف و التهميش وأفقدتها ثقتها بنفسها ،لكن هناك أناس بالكاد أستطيع عدهم على الأصابع، لم أعرف بعد كيف يبتسمون للحياة بينما تعصرهم عصرا يكتم الأنفاس، ويجهزون لها الحدائق وتيجان وأكاليل

الورود و بالمقابل تقوم بتزيين المقابر لهم و حجب الشمس عن عيونهم و الهواء عن أجسادهم ، يجب على المرء أن يسير على خطاهم ، رأيت أيضا في محيطي الجامعي أن أكثر ما يجعل الطلبة ينسحبون و ينزلقون من على سطور الصفحات ليتخذوا من الهوامش أمكنة أبدية لهم ... مهلا ما كل هذا الضعف؟

يتساءل أيا منا عندما يسمع بانسحاب قائلا: أنى لهؤلاء أن يهربوا من القدر بهذه الطريقة البشعة ليرسموا بدل النجاح هزيمة؟ وأكثر ما كان يقلقني هو أنانية البعض من الناس لست أفهم لم يسيطر قانون الغاب على الحياة برمتها ولا يدع للشريعة السماوية مجالا لتضع قانون الإنسانية السليمة، نعم لقد مرض الكل _أعني الأغلبية_ بمرض يدعى "المحافظة على البقاء مهما كلف الثمن "و" أنا ومن ورائي الطوفان" لماذا لا يهتم الواحد إلا بمصيره وكأن العضو الوحيد يستطيع العيش بمفرده ألا يعلمون أن الكل يحتاج للواحد والعكس جميل. سئمت رؤية هذا الزبد الذي ينخر الوجوه وينزع عن القلوب تلك الإنسانية المنشودة، ما هوية الفرد الذي لا يقبل نصيحة ولا ينظر للخطأ بعين الصواب ولا ينه عن منكر؟ بل إنه يفضل الصعود لضالته وبلوغ مناله ولو "على حساب جثة غيره" ،هناك العديد من الأفكار والصفات الخانقة التي تكبر في صمت مجتاحة كل سنتميتر ومربع كحب الانتقام والثأر والذي يعتبره البعض غريزة أو صفة وراثية يخضعون لها و يحافظون عليها من جيل إلى جيل كأنها موروث ثمين، هنا أقف ويصيبني حزن و كآبة شديدين ،كل ما أتذكر

هو تلك الآيات اليتيمة التي تركناها دون رعاية لمن يرعاها متطوعا فيأخذ الثواب بدلا عنا لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ولقوله :(لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا) كما أوصى صلى الله عليه وسلم بتبادل الهدايا بأريج من المحبة والتجرد الكبير من براثن الدنيا لا أريد أن أتكلم عن الهدايا المصنوعة من معادن الدنيا وقساوة المادة ،هناك هدية أسمى من كل هذا ،إنها السبيل الوحيد للسعادة في دنيا صغيرة ومتعبة كهذه التي نعيش فيها، إنها كما يقول جبران في كتابه" مناجاة أرواح":(جميل أن تعطي من يسألك ما هو في حاجة و لكن أجمل من ذلك أن تعطي من لا يسألك و أنت تعرف حاجته به ، فإن من يفتح يديه وقلبه للعطاء يكون له فرح بسعيه إلى من يتقبل عطاياه، والاهتداء إليه أعظم مما بالعطاء نفسه؟) إنها ثقافة لا تستورد، لا تباع لا تشترى، لا تبلى لا تصدأ ولا تنتهي، إنها معدن نفيس يتكون في النفوس الصافية الألماسية التي لا يعرف البعض طريقا إليها... من الرائع أن يكون كل فرد بئر لا تنضب مياهها تعطي حياة لكل من ينشد ماءها كبيرا كان أم صغيرا. إن العطاء أكبر من نعمة الحياة نفسها يجب أن يقتنع كل واحد من هذا المجتمع الصغير أن يعطي دون أن يتآكل في طابور الانتظار يجب أن ينسى كلمة المقابل فإنها تفسد الكثير كما أن الإنسانية تنطوي في أن تعطي المحتاج و أن تفهمه من غير كلمات بل إنها قمة الإنسانية، لا ينحصر هنا العطاء في كل ما يضمن للأجساد البقاء بل يجني العطاء ثمارا أجمل وحصادا أوفر... يضمن سعادة و جمالا للأرواح

وهو" ثقافة الابتسامة" أو كما يسميها جبران "فلسفة الابتسامة" و يقول عنها إنها كالمرآة تعكس فضائل كثيرة ، إنها جدول من الرحمة والحب تجري لتترك اخضرارا و ألوانا كثيرة من الزهور و النجوم المتناثرة في سماء الحياة و التي يجهل الكثير منا ما مدى تأثير هذه العضلة البسيطة التي تعطي وجوهنا جمالا عندما تتقلص، قد ألح عليها ديننا الجميل و تركها لنا رسولنا وصية بين حنايا الإنسانية الجميلة قائلا: (ابتسامتك في وجه أخيك صدقة) هناك أشياء أغلى وأسمى بكثير .... وجب أن نتعلمها بدل تلك التي نتعلمها في محيطنا الجامعي أو في غيره من الأماكن، إنها الحقيقة التي نتغابى في فهمها ونتناسى وجودها بل إن أغبى شيء وجدته_ أيضا _ يعبث بين الناس هو احتقارهم للأفكار الكبيرة بحجة أن أصحابها لم يصلوا بعد لدرجة من النضج؟ لم أفهم؟ أي نضج يقصدون أهو النضج الذي يتعلق بالأجساد أم ذلك الذي يتعلق بالعقول والوعي وطريقة التفكير أم هي التجارب التي يتحجج الكبار أحيانا بأنها شيء يخصهم وحدهم دون غيرهم من البشر، كثيرا ما تظلم الآراء بحجة أن الناطق بها لا يعرف ماذا يقول وعن أي شيء يتحدث...." يا سلام" على عمر يمضي في مهب الرياح وسنوات تضيع دون أن يدرك الفرد أن هناك من العقول من لا يعترف بعمر الأجساد ولا يحزنه مدى صغر حجمها، إن ما يجب استبعاده هو تلك الأجساد الثخينة صاحبة العقول المضمحلة والمتعفنة ،ليس هذا فقط ما تعانيه المجتمعات العربية بل هناك عداوة بين أبناء البلد تنمو و تترعرع داخل الأخوة المزعومة كانت هذه من أكبر القضايا التي أرقتني طوال

مشواري الجامعي وجدت أن المعاملة تتم عن طريق الأرقام والأصول والجذور المشتركة ومن لا يتمتع بشروط معينة فهو ليس"ابن الجزائر" وصرت أسأل: هل خرج المستعمر الفرنسي من بلادنا حقا ، لماذا يضللني أجدادي ...؟ هم أخرجوا الأجساد لكن السم بقي في الهواء يسري كإشعاع نووي يلوث كل مولود جديد و يسميه "بالأرقام" لا" بالأسماء " ويعلمه أن ينطق "بالتفريق" بدل "الالتحام" لا أحبذ جبران كثيرا لكن يعجبني قوله: "أنت أخي وأنا أحبك، ساجدا في جامعك وراكعا في هيكلك، ومصليا في كنيستك فأنت وأنا دين واحد هو الروح" إنه يتكلم عن تعايش الأديان، فهو يقبل الأخوة بجميع أشكالها ما دام هناك شيء واحد يجمعه بغيره و هو" الروح" إن كان لجبران الروح فقط فلنا الله، الإسلام و الإنسانية المشتركة وأننا كما قال صلى الله عليه وسلم "كلكم لآدم و آدم من تراب" ، فكيف به يجتمع مع ديانات متعددة، ونتعصب ونحن نجتمع على ديانة واحدة ؟ كما صادفت أيضا مشكلة أكبر من هذه بكثير وهي الخوف من قول الحق، والجبن الذي لا مراسي له، وبالأخص ذلك الخوف الذي يتشبث بالألسن والأقلام حين تكتب فهي تعير الكثير من الاهتمام لمن يقرأ وبالتالي فهي تحرم الإبداع من حلاوة الصدق. كتب كاتب أمريكي قائلا: يسألني كثير من الشبان أن أضع لهم مبادئ تساعدهم في الكتابة فلهم أقرر هذا المبدأ وهو: "أكتب في الموضوع الذي تجيد معرفته والشعور به ثم أكتب ولا تنظر لما تحدثه كتابتك من نتيجة وأثر، وكل ما يجب أن تعنى أن تعتقد أن ما تكتب حق ولتكن نتيجته ما تكون

وليكن مرشدك في كتابتك الحياة ولا تخشى من نقد يوجه إليك إلا من ناحية أنه حق أو ليس حق".... لا تكون الحياة حياة ولا الكتابة وجودا له كيان على الأوراق ووقع في النفوس إلا إذا ابتعدت عن التحدث بلغة الضمير والإسناد و الغياب، لا تحتمل الحقيقة ضمير" هو" أو "هي" بل أجمل الضمائر التي يجب أن تكتنفها الحروف بين تقوسها وانثنائها ورسمها هو ضمير" أنت" ما أروع ذلك الصدق الذي ينتابك عندما تقرأ لكاتب يبتدئ بالضمير "أنا" ولا يتكلم على لسان الغياب أو بلسان من هم أقدر منه على تبليغ ما يشعر، لست أفهم لم يخاف الناس من قول الحق...إنها تشبه أشعة الشمس الدافئة عندما تحاول أن تخترق تلك الثقوب الجميلة التي تحملها ستائر رقيقة وشفافة مثل الحقيقة تماما يقابلها النائمون بسخط كبير وانزعاج كبير لماذا ؟؟؟ ربما لأنها قطعت عنهم نومهم اللذيذ وجمودهم الميت ، ما ذنب هذا الشعاع الدافئ غير أنه يسعى لبعث الحياة في تلك البرودة القاتلة و يمنح للأجسام اللون الزهري بدل اللون الأزرق و الأسود الغارقين في الظلام ، نحتاج كثيرا إلى الثقة بهذه النفس الجميلة و أن نؤمن بما تقوله الضمائر الناطقة باسم الحق و النور، ما أحوجنا لتعلم حقيقة "الوقاحة" و"الصراحة" فقد رأيت من الكبار _أقصد المثقفون خاصة _ما هالني وأدهشني وهو أنهم يخلطون كثيرا ويعانون من "إشكالية المصطلح" فبمجرد ما ينطق بالحق ويولد من على حافة الشفاه يعدم بالأغلال و ليس الحبال لأنه مجرد وقاحة و تجاوز لحدود المعقول والمستعار من القول كم يتعب المجاز والبديع _عامة_ هواة قول الحقيقة وكم يخاف

الوقحون من بؤر النور التي تحاول أن تخترق ستائر السواد، ربما لا يدركون بأن كتمان الحق ومنع النور من تجاوز زجاج النوافذ وقاحة كبيرة وسوء معاملة للحقيقة ذاتها و الصراحة أن تشهد بالحق و حبل الموت ملفوف حول رقبتك وينتظرك عند الحافة ليأخذك إلى عالم لا يعترف إلا بالحق..... من جديد دخلت دوامة البحث عن لقب أكاديمي أو رسمي للطالب في الجامعة، كلما أحاول الذهاب والمغادرة أجدني ألتفت إلى الوراء مجددا و أعود إلى نبش التراب عن الحقيقة التي أظنها موجودة في مكان ما بين القبور تنتظر أن أنقب عنها وأمنح الفرصة لصرخاتها أن تتردد على مسامع الطيور و طيات الأمواج وبكاء السماء، صرخات منعها باطن الأرض من أن تنبض مع الأحياء...ضقت ذرعا بهذا الكلام و ذاك الذي يتناقله الناس وتتداوله الألسنة في جميع الأوساط، رأيتهم تتغير ألوان وجوههم عند الحديث عن الجامعة والإقامة بصفة خاصة ورأيت تعابيرا يفعلها الكبار و تعليقات لم ترقني كثيرا، تجاهلت الأمر لكن أحسست أن رسالة ما تحاول الوصول إلى أذني، لم أستطع إدراك ما وجب علي فعله آنذاك لكن قررت بعدها أن أسأل بعض علامات الاستفهام التي علت وجه إنسان أعرفه جيدا، تعثرت كلماته في الأول أحسست أنه يحاول أن يجد ألفاظا أكثر لينا و أقل وقعا، ليتفوه بعدها بكلمات أخذت تبعد جسمي عن بعضه تماما كما تفعل الصفائح القارية، أجل إنه يحدث زلزال بروحي قبل جسمي، أصبحت جميع الطبقات ترى الطلاب الجامعيين لعنات تمشي على الأرض تجذب لهم القحط وإمساك

السماء، أصبحت الشيخوخة تأكل شبابا وهم في مقتبل العمر كما يأكل الصدأ الحديد، أصبح الانحلال والوقاحة يطبعان الأغلبية، لم أجد جوابا.. أأجيب بالقلة؟ لكن الفيروس الخبيث يمثل الأكثرية يلوم الناس الشباب وكلهم يعلمون السبب، فكما تقول الداعية الناشئة وهي من مواليد 1994م في كتابها الهادف و السامي في أهدافه وغاياته "قطوفها دانية" (إن أعداء الإسلام من الغرب واليهود لا يألون جهدا إلا بذلوه، ولا سبيلا إلا سلكوه، ولا ثغرا إلا ولجوه ، لينفذوا إلى قلوب الشباب ويجعلوه من أبطال الأمة دمى، يحركونها في الاتجاه الذي يريدون، ولا عجب بأن يكون الشباب هم الفئة المستهدفة من حرب الغرب: لأنهم سر نهضة الأمة ورفعها إلى القمة، وبعثها بعد مواتها وإيقاظها بعد سبات، فهم أصحاب الأدمغة المفكرة والهمم الوثابة واليقظة العالية والدماء الفاترة. لذا تعرض شبابنا على طول التاريخ الإسلامي لحرب ضروس ومؤامرة مدبرة لا يزال بركانها يلقي بحممه المستعرة علينا إلى يومنا هذا....

فمنذ مئات السنين عندما أراد الغرب استعادة بلاد الأندلس من المسلمين أرسلوا إليهم جاسوسا ليستطلع أحوالهم ويستكشف نقاط ضعفهم، وعندما وصل الجاسوس إلى الأندلس التقى بشاب يجلس على صخرة وهو منهمر بالبكاء، فدنا الجاسوس منه وسأله: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن صاحبي يصيب هدفين بسهم واحد، وأنا أصيب هدفا بسهم. صدم الجاسوس من هذا الجواب الذي ينم عن فكر نير، وعقل راجح، وأعجب بشخصية الشاب

الحماسية، وهمته السامية، وقال في نفسه: إن كان هكذا تفكير شبابهم فكيف بتفكير رجالهم؟ عاد الجاسوس مسرعا إلى الغرب وقال لهم: لم يحن الوقت بعد لغزو الأندلس، فإني وجدت صغارهم رجالا ورجالهم أبطالا، وإن أردتم استعادة بلاد الأندلس من المسلمين، فلابد لكم من توجيه ضربة قوية لهم، تكون قاسمة لظهورهم، ومشلة لحركاتهم، وتأكدوا بأن ذلك لن يتأتى لكم إلا بضرب عمودهم الفقري وهو الشباب فإن شابا منهم بألف رجل منا.... فكر الغرب جيدا بمكيدة تضعف همم الشباب وتثني من عزائمهم فوجدوا أن حربهم مع الشباب لا تحتاج إلى قتال وهدر دماء، وإنما بحاجة إلى التنسيق مع دور الأزياء لإشغالهم بآخر صيحات الموضة، وأدوات الزينة

إلى آخر هذه الفتن المضلة. وقالوا : علينا أن نئد في الشباب روح الهمة في نصرة الأمة، ونبعدهم عن دينهم الذي هو مصدر قوتهم، ونغرس في عقولهم الاهتمام بالمظهر دون الجوهر، وننشر في بلادهم المعازف والخمور والمراقص والسفور، وقصص الحب والغرام التي تخالف الإسلام، وإن خسر العرب شبابهم سهل علينا احتلالهم. قال احد قادة الماسون من اليهود :" كأس و غانية يفعلان بالأمة المحمدية ما لا يفعله ألف مدفع ودبابة ،فأغرقوها _أمة محمد_ في حب المادة والشّهوات "و بعد مرور بضع سنوات على تنفيذ خطة الإيقاع بالشباب في مصيدة الشهوات كان عليهم أن يتأكدوا ،هل الغزو الفكري للعرب أدى بالغرض ، ففرقهم عن بعضهم البعض، وأضعف ارتباطهم

بالأرض؟ وبمعنى آخر: هل السم قد سرى مفعوله في الدم، فأوهن الجسم وأفتر العزم؟

وللأسف كان لهم ما أرادوا فعندما أرسلوا جاسوسا إلى بلاد الأندلس، التقى بشاب يجلس على الصخرة ذاتها وهو يبكي، فسأله الجاسوس ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن حبيبتي تركتني ولم تأتي في موعدها. فطار الجاسوس فرحا لتفاهة جوابه، وأسرع إلى الغرب يحمل معه البشرى لهم وقال: افرحوا. لقد ضاع شباب العرب، ضحوا بالمبادئ والأدب، وانشغلوا باللهو واللعب، واهتموا بالعشق والحب. افرحوا.... فلا الهم هم ولا العزم عزم، نسوا الأرض وفرطوا بالعرض، الآن... الآن اغزوهم وشر طريدة اطردوهم. افرحوا... وأقيموا الأعياد وأعلنوا لدولتنا الميلاد

قال الشاعر يوسف العظم:

تقود أمتنا للحرب غانية والجيش في الزحف قد ألهته مغناة.

الزق والرق والمزمار عدتنا والغرب عدته علم وآلات.

وشرعة الله في القرآن نهجرها وشرعة الخصم تلمود وتوراة.

وجيلنا ضاع في تيه يمزقه ودربه ضل قد دكته مأساة

لقد كان الغزو الفكري ممهدا للغزو العسكري، واستطاع الغرب أن يبسطوا نفوذهم على بلاد الأندلس ويجعلوها في محكم قبضتهم، وهكذا ضرب الغرب

عصفورين بحجر واحد: لقد ماتت حضارة الأندلس الإسلامية، وضاع شباب العرب. وقد نظم الشاعر أبو البقاء الرندي قصيدة في رثاء الأندلس قال فيها:

أعندكم نبأ من أهل الأندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان؟_

يا من لذلة قوم بعد عزهم أ حال حالهم جور وطغيان._

بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم واليوم في بلاد الكفر عبدان؟_

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان. _

ليست بلاد الأندلس وحدها يا أيها الشاعر المتألم وإنما العالم بأسره يتأوه ويجدر بنا جميعا رثاؤه ليست وحدها الأندلس من فقدت عزتها وصار أهلها لبلاد الكفر عبيد وإنما صار كل العالم يداس بالأقدام، وهن العظم من شبابه واشتعل الشيب في الأمة قبل فطامها، رمى الغرب لنا بالعظام وحرمونا منفعة اللحوم.... تمنينا لو تعود للأندلس ورودها ولقصر الحمراء إشراقه ولعصافيرها صوتها العذب، تمنينا أن يعود ذلك الحياء، أن تعود ملابس العرب للأرواح العربية بأبيضها وأسودها بصوفها وحريرها وتفصيلها الأصيل البسيط الجميل وأن تغادرنا ثياب الذل مهما تعددت بها الألوان فلا حاجة لنا بكشف الأجسام، فكما يقول الشاعر:

قلدوا الغربي لكن بالفجور وعن اللب استعاضوا بالقشور.

لا ألومهم بمختلف طبقاتهم، ولا يمكنني تغيير قناعتهم، هُنَا فسهل الهوان علينا فكما يقول الشاعر:

ومن يهن يسهل الهوان على هـ ما لجرح ميت بإيلام.

وجدت أن الجامعات أصبحت أماني يتمناها الأغلبية من أجل نيل حرية أو طلبا لحياة" الفوضى واللانظام" والتسابق في الخروج عن استعمال الزمن المنطقي والمعقول، إنها مكان حيث يحدث كل شيء بالإجبار.... أن تتعذب النفس، فتسمع مالا تريد وتنظر إلى ما لا تطيق وتتحمل ما ليست لك به طاقة، لفت انتباهي شيء مهم جدا عندما سألتني إحدى الطالبات_ وهي طالبة في السنة الأولى أدب عربي_ بعد أن خنقت عيونها العبرات وطوقتها بنوع غريب من الخوف لم أفهمه إلا بعد الحديث معها مطولا كان لها هدف واحد وهو أن تبحث عن طريقة تبقي بها على أخلاقها ومبادئها سليمة بعيدة عن كل ما يدنسها ويأكلها، غريب؟ لهذا الحد أصبح الخوف من فقدان الأخلاق مرهقا؟ وجدت أن الكثير يبحث عن دروس في التنمية البشرية ومحاضرات و كل ما من شأنه أن يبقيهم على الحال الذي دخلوا عليه، لم أجد تفسيرا لهذا، إنه نفس الصوت الذي يتكرر في جميع الزوايا والجدران ويعيده الصدى بشكل أكبر وأعلى يخيف أكثر... لكن أيقنت بعدها أنها مسألة" مبادئ " لا يمتلك الكثير من الشباب اليوم قناعة بما يفعلون و لا يثقون في رؤاهم و سرعان ما ينصهرون في الغير و يكتسون خصائص غيرهم كالنحاس

والقصدير من المعادن التي تتحمل الأصباغ و تتآكل بمحلول الفضة و روح الملح و غيرها، لا يمتلك الشباب حصنا دفاعيا و لا مناعة ضد السلبيات من الأفكار و الأفعال _ربما كان من الصعب عليهم أن يكونوا ذهبا لا يتبنى لونا و لا يغيره موطنا و لا يباع بأبخس الأثمان _ يموت الإقدام و المروءة اليافعة فيهم يوما بعد يوم و لا يعلمون؟ يهتمون كثيرا لابتسامة الغير ولا يهتمون للابتسامة لأنفسهم ومعرفة مرادها بدل أن ينفذوا تلك القائمة الطويلة من مراد الآخر، لست أدري ماذا يقرؤون أو ماذا يتجرعون، كلمات وحروف موسيقية لا رسم لها على أرض الواقع أو بضعة أسطر هزيلة تعطيهم الفتات يوم الامتحان وتتركهم بعدها ليصارعوا الجوع بعد أن تموت متأثرة بجروح النسيان والعبث، ليواجهوا بقية حياتهم عطشى وجياع ويبقى ختام قصص الشباب بقول (إن في قصص الأولين لعبرة) لقد ترك لهم الشاعر والإمام الشافعي أجمل الأبيات التي ترجع لهم الهوية حيث يقول:

العلم صيد والكتابة قيد　　فقيد صيدك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة　　وتتركها بين الخلائق طالقة.

ويقول أيضا:

صُنِ النَفْسَ واحْمِلْهاَ عَلَى مَا يُزَيِنُهَا　　تَعِشْ سَالِمًا والقَوْلُ فِيكَ جَمِيلُ.

ولَا تُوَلِيَّنَ النَاسَ إلاّ تَجَمُلاً　　نَبَا بِكَ دَهْرٌ أَوْ جَفَاكَ خَلِيلُ.

وَ إِنْ ضَاقَ رِزْقُ اليَوْمِ فَاصْبِرْ إِلَى غَدٍ عَسَى نَكَبَاتِ الدَهْرِ عَنْكَ تَزُولُ.

وَلاَ خَيْرَ فِي وُدِ امْرِئٍ مُتَلَوِنٍ إِذاَ مَالَتِ الرِيحُ مَالَ حَيْثُ تَمِيلُ.

مَا أَكْثَرَ الخِلاَنَ حِينَ تَعُدُهُمْ ولَكِنَهُمْ فِي النَائِبَاتِ قَلِيلُ.

ويقول في العلم أيضا:

علمي معي حيثما يممت ينفعني قلبي وعاء له لا بطن صندوق.

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي

أو كنت في السوق كان العلم في السوق.

ويقول:

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان.

ذكاء، وحرص، واجتهاد وبلغة وصحبة أستاذ، وطول زمان.

ستظل مشكلة الضياع و الفراغ المخيف مقيمة بين أضلاع الشباب الهرمة مادام هناك عزوف عن التمسك بالمبادئ و الإصرار على الريادة و القيادة ، لا يمكن لأي كان أن يعلو ويسمو ما لم يتحرر من قيود بداخله تعمل في الخفاء ، قد يخفى على الكثير أن المبادئ تيجان من العزة والحرية ومكمن السعادة والتميز الذي يرفع الروح إلى محراب الطموح لتتحدث طالبة نفوذا من

أقطار الحياة البسيطة و محلقة بعيدا عن سماء الاكتفاء والقناعة المذمومة إلى سماوات لا تحمل إلا تميزا وتلونا لا يشبه أية تكوين، لقد ظُلِمَتْ السعادة كثيرا فهناك من لا يؤمن بوجودها ويسخر ممن يؤمن بها و هناك من يؤمن بهبوبها أحيانا متى أذن الله بذلك وهناك من يؤمن بتواجدها بين القصور والأموال والملذات من الدنيا... هذه القناعة قد أغرقت الكثير من الشباب فأصبح الشاب و الشابة يخجلان من وظيفة الوالد وهناك حتى من يخجل بلقب والده الشريف وبكل بساطة لأنه لم يرق لصديقه بل يضحك كل من يسمعه، هناك من يبيع الطاعة بمعصية خالقه ومن يذبح ثقة والد مقابل السعادة المزعومة حيث وجدت أن أكبر شيء يسعى له الشباب تحصيل دراهم براقة ولو على حساب ما لا تشتريه الدراهم، الجميع مؤمن بأن "الغاية تبرر الوسيلة" والمال غاية وليس وسيلة "لم أعد أفهم شيئا؟ بم تتعلق السعادة؟ أو فيما تكمن؟ رحلت إلى عصر من كانوا لا يملكون من الدنيا سوى ما لا يمكن الاستغناء عنه من خبز وماء وألياف تلتحم بمشقة مع بعضها لتصل ثوبا باليا ببعضه ورغم هذا كانوا أسعد منا فالسعادة عند ابن المسيب كانت في تألهه، وعند البخاري في صدقه، ومع الشافعي كانت في استنباطاته، ومالك في مراقبته وأحمد في ورعه، وثابت البناني في عبادته[1] وذلك لقوله تعالى:"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لاَ نصَبٌ وَ لاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ لاَ يطَئُونَ مَوْطِئًا

[1] انظر كتاب الدكتور عائض القرني، لا تحزن مكتبة العبيكان ط الخامسة والعشرون ص 282

يَغِيظُ الكُفَارَ وَلاَ يَنَالوُنَ مِنْ عَدُوٍ نَيْلاَ إِلاَ كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحْ" يقول الدكتور | عائض القرني في كتابه "لا تحزن" ليست السعادة شيكا يصرف، ولا دابة تشترى، ولا وردة تشم ،و لا برا يكال ،و لا بزا ينشر، السعادة سلوة خاطر بحق يحمله ، وانشراح صدر لمبدأ يعيشه ، وراحة قلب لخير يكتنفه.

إنها ما يجب فعلا على الناس أجمع أن يقتنعوا به وخاصة الشباب منهم لأنه العصب الحساس لهذه الأمة وذروة سنامها، كثيرة هي الأمراض التي تقتلنا ونحن نبتسم لها، مرحبين بتواجدها بيننا. لم أكن أنا التي ترصدها بل كنت أراها تتجول في المحيط وتخيفني بزمجرتها وكأن البقية لا يرون شيئا وتهددني وكأنني الوحيدة التي تنظر إليها، لا يجب عليها أن تخاف إلى هذا الحد لأنني حتى وإن كنت أراها لا يسعني فعل أي شيء، إنها تخاف الوشاية والسجن، عفوا؟ وشايتي سرا وليست جهرا وكفاحي بدائيا ولا أملك شيئا أحدث بل أكاد لا أملك حليفا أصلا، إنها مكان غريب إذا أردت أن تكذب على نفسك بوجود الجمال فيها فإنك تستطيع وتصدق كذبك وتنسى أنه مجرد تمثيل وإذا أردت أن ترى الجانب المظلم فلن تحتاج إلى تمثيل كل شيء واقعي ومحسوس لا يحتاج إلى تنميق أو تغليف، أتذكر دائما هذا القول الجميل " الطيبة هي سبب التعاسة".

إنها فعلا تلعب بالطيبة، تستسيغها في الأول وسرعان ما تبدأ في إظهار الانزعاج منها والتذمر والاستهزاء فتتوهم القلوب البريئة نفسها بعيدة عن رقيهم

وحضارتهم وأنها تعيش في زمن غير زمنهم تبكي، ترفض، تخاف، يؤنبها الضمير الحي، تأخذ الأفكار في مد وجزر أخيرا تخضع الأغلبية لقوة الجاذبية مهما كانت قوة المد والجزر لا تستطيع الأمواج التحرر من الجاذبية، ويحدث الانجراف والانحراف فتكتسب النفوس طبائع غير طبائعها وعادات غير التي اعتادت عليها فيصبح الأغلبية أهلا لهذه الأبيات:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من توهم.

يصبح الإنسان لا يعرف نفسه وغائبا عن سلوكه، بالكاد يتعرف على نفسه أمام المرآة، عجبا؟

أين السماحة، اللطف، الإحسان، دماثة الأخلاق كلها ذهبت وحلت محلها أشياء أقبح فكما يقول الشاعر:

البر أبقى وإن طال الزمان به

والإثم أقبح ما أوعيت من زاد.

ماذا تعلمنا؟ كبرت الآثام التي تحاك في الصدور وكرهنا أن يطلع عليها الناس، تشربنا العداء والوقاحة من باب أنها من متطلبات الحياة وعناصر ضرورية لاستمرارية الحياة، ماذا دهانا ننهل ولا نعلم من أي مستنقع ذلك المنهل؟

وما كان يقلقني بشدة هو توجس مريع لكل من يطرق بابك منشدا مساعدتك أو صداقتك والكل ينهرك ويبعدك عن البشر، لماذا ؟؟

لم يخلقني الله وحيدا بل قال في كتابه علا شأنه:" إنا خلقناكم شعوبا وقبائل إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

لم ينادي ربي أبدا في كتابه بالوحدة دعوني وشأني، لا أريد أن أكون صديقة لوحدتي وسكون الحجر، لقد كان لي في رسولي أسوة لأنني آمنت به نبيا وبإلهي ربا وإسلامي دينا قيما، لم ينه صلى الله عليه وسلم عن المصاحبة أو الخلة بل نهانا عن مصاحبة من يحرمنا سقيا الطاعات ويهدم لنا الكرامة ويذهب عنا الحسنات، يستطيع كل البشر أن يصبحوا خلانا ويصادقوا بمشيئتهم ليس من تهواه نفوسهم لأن النفس أمارة بالسوء بل كل من رأوه يقربهم من عبادة خالقهم وبر أوليائهم والسمو بأخلاقهم. أحسن اختيار من تصاحب ولك مصاحبة البشرية جمعاء، إنه ضعف أن تهرب وتعزل نفسك عن البشر بحجة الخوف والالتفاف على أخلاقك العذراء، تحتاج الأخلاق إلى شيء يدعمها كي تكبر إنها مثل زرع طيب تحتاج إلى الماء والهواء وعناية فائقة حتى لا تبقى عقيمة فتصقل وتتخلى عن قديم جميل وتتحلى بجديد أجمل وتنجب أفكار تنفجر إلى أهداف أنبل مما كنا نتصور، المشكلة التي يطرحها الجميع كيف نختار الرفيق؟ وماذا تعني الصداقة الصادقة؟ هذا ليس بالشيء العسير يقول عائض القرني في كتابه "لا تحزن": على هيئة الأمم المتحدة

بنيويورك لوحة، مكتوب عليها قطعة جميلة للشاعر العالمي السعدي الشيرازي، وقد ترجمت إلى الإنجليزية وهي تدعو إلى الإخاء والألفة والاتحاد، يقول:

قال لي المحبوب لما زرته من ببابي؟ قلت: بالباب أنا.

قال لي: أخطأت تعريف الهوى حينما فرقت فيه بيننا.

ومضى عام فلما جئته أطرق الباب عليه موهنا.

قال لي: من أنت؟ قلت: أنظر فما ثم إلا أنت بالباب هنا.

قال لي: أحسنت تعريف الهوى وعرفت الحب فادخل يا أنا.

يقول الشاعر أيضا:

ولابد من شكوى إلى ذي قرابة يواسيك أو يسليك أو يتوجع.

لابد للعبد من أخ مفيد يأنس إليه، ويشاركه أفراحه وأتراحه ويبادله ودا بود لقوله تعالىّ:(واجعل لي وزيرا من أهلي، هارون أخي، أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا)

لا ينتفع الإنسان بالصاحب الطيب في الدنيا فقط إنما خبأ الله لهم ثوابا عظيما عند ملاقاته لقوله تعالى:" أين المتحابون في جلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي"

ويقول صلى الله عليه وسلم "المرء على دين خليله فلينظر منكم من يُخَالِل"
ويقال أيضا:

« Dis-moi qui tu fréquentes. Je te dirais ce que tu es »

المرء يتأثر كثيرا بمن حوله وبما أن حياته عبارة عن أخذ وعطاء مع غيره لا ينمو الورد من غير روض ولا جمال للروض من غير ورد.....

يقول الشافعي:

وَدَعِ الذين إذا أتوك تنسكوا وإذا خلوا فهم ذئاب حقاف.

إنه رسم دقيق لشيء أودعه الله في النفوس لكن سرعان ما تكبر و تتلون بالأسود كحجر هبط من الجنة فلوثته خطايا البشر....لابد من الهروب و تغيير المسارات التي تسير عليها بعض النفوس ، لأن مسألة الثقة مرهقة جدا فكثيرا ما تعصف البواطن بالمظاهر المسنة و تسقطها بعيدا عن عصاها التي كانت تتوكأ عليها طويلا ، إنها فخاخ تكاد تشبه البكتيريا إلى حد بعيد تتكاثر بسرعة و تغير ما أمكنها التغيير لتخلق مناخا ملائما لاستمرار نوع بشري غريب، كل شيء الآن لا يشبه أي شيء مضى حتى اللؤم و الدناءة أصبحا يتخذان شكلا معقدا و قبيحا أكثر من ذي قبل، أذكر جيدا ما كانت ولا زالت ترويه لي أمي عن الماضي و ما أصبحت تتعجب له من انقلاب في الموازين وانتشار الييباب المدمر ، كان اللئيم قبلا يطرق الباب قبل الدخول أو يسترق السمع من فتحة باب أو صدع الجدار و يختلس النظر حتى من وراء

الزجاج ...لكن ما أراه الآن مسألة أخرى و شيء غريب، أقرأ ، أرى ، أسمع كلها تملك نفس الوقع على نفسي ؟ تمنيت لو أن بعضا مما يحكى أو يكتب يكون مزحة أو كذبا، لكنها حقيقة تمزق أغشية الأبصار والبصائر، أصبح اللؤم أذكى بكثير بل أبشع بدرجة تفوق حدود المعقول ،أصبح بعد أن كان متسولا أو ضيفا يمثل الزيارة و ينتظر التكرم بفتح الباب ببساطة كان بعيدا نوعا ما كان يسمى بجرأة أصبح الآن ينساب بمرونة تحت الأبواب و يدخل مع الرياح من النوافذ و يسكن مقل العيون بدفء تام و ابتسامة عريضة و أصبح الكثير بالنسبة له مشاريع تعود عليه بالسعادة كلما تعس عبيده ، أذكر عندما اقتنيت أحد الكتب من معرض كتاب أقيم في إقامتي «علي منجلي 01" عام 2012م ، أعطتني معه البائعة مطوية صغيرة ولما هممت بدفع ثمنها ردت أن لا.. ؟ ثمنها أن تتجنبي ما بداخلها تعجبت من حيرتها الشديدة التي رسمت على ملامحها، بعد أن قرأتها وكانت بعنوان "شرارة البداية" وختمت لقاءنا القصير بقولها إن الملايين من هذه المآسي تتعاقب كتعاقب الليل والنهار، والمشكلة؟ ثم صمتت، قلت ماذا؟ قالت: أنه لا أحد يعتبر. تعبت من كلامها المشفر وقررت أن أكتشف ما تحمله المطوية بنفسي ،بدا الأمر سهلا لكنني أعجز عن قراءتها و فتحها حتى كدت أنساها ، انقضت شهور قررت أخيرا أن أقرأها بعد أن تكدس فوقها غبار الخوف الكثيف ، كان كل ما في الأمر أن شابا ذهب عند زميل له فقدم له كوبا من شراب مذاقه ليس كمذاق الشاي الذي كان يخال الزميل الزائر البريء منذ ذلك اليوم و ذلك المسكين

يحس بصداع شديد في رأسه المهشمة بفأس البراءة فلم يعرف السبب و كان كل يوم يحس برغبة شديدة لشرب ذلك الشيء يتردد على منزل صاحبه و يطلبه بقوله هل مازال لديك القليل من ذلك الشاي _لأن زميله الخائن قدم له السم باسم الشاي البريء_ و في أحد الأيام بلغته وفاة الصديق المزيف و منذ ذلك اليوم يكاد السيد أن يصاب بالجنون لأنه فارق شرب ذلك الشاي مع مفارقة صديقه لنور الحياة ،فلما اشتد به الأمر أخذه والده إلى الطبيب أين كانت الكارثة الكبرى ماذا حدث ؟ عندما بدأ الطبيب يسأله عن كل ما يمكن أن يساعده على تقييم حجم المصيبة لم يتذكر المسكين سوى نظرة وابتسامة تخرق الأحشاء من صديقه عندما سأله عن هوية الشراب الذي قدمه له، فأخبره الطبيب بأنه مدمن على شرب الشاي، لا؟ طبعا إنها أم الخبائث وهو لا يدري؟ فسقط والده مغشيا عليه وتحول هو بعدها إلى كومة من اللحم ألقيت في أحد المصحات بعدما ذبل عود الشباب وراح بريقه، لقد اعتدت على هذا النوع من الحوادث وجرائم الصداقة لكن الخطأ الكبير لا يتمثله الشاب وحده بل من هم أكبر سنا وخبرة في الحياة إنهم الأولياء الذين سرعان ما تتحلل مسؤوليتهم تجاه أبنائهم، فيتركون أرواحا يافعة تجوب شوارع الضياع وأجسادا غضة تكتسي الانحلال وتسمع حديث جدران أزقة الشوارع المظلمة، من أين لهم المعرفة؟ بل أين طوق النجاة حتى أثناء الغرق؟ الكثير من الأولياء من يمنح أبناءه المال الوفير والقناطير المقنطرة من الهم الكبير، وبهذا تتحقق الأبوة .... هذا الشاب في هذه القصة يروي مأساته وبين سطوره يلتف تساؤل

كبير، تصرخ حروفه وتكاد تمزق شرايين حنجرته قائلة: أبي.... أبي تعودت أن أتأخر في العودة إلى المنزل وأحيانا لا أعود إلا في الهزيع الأخير من الليل، ولم أجد ذلك الذي يجب أن يكون بالمرصاد كلما تأخرت، أين أنت؟ لماذا تأخرت ومع من كنت؟ لكن سياج الثقة الممنوح له من طرف والده حال بينه وبين هذا السؤال المهم؟ هناك من يتوارى عن أنظار الحقيقة وعندما يُسأل عن الواجب يجيب بالثقة الممنوحة؟ لا، ليس هكذا تتم الأمور، فالسفن تقاد و لا تجري مثلما يشْتهِي السَفَنُ ،لست أدري لم كل شيء تغير... انقلب مثلما تتغير مياه الأنهار لم يحمل شيئا صالحا للحياة بل وحل أسود كالذي يستقر بأسفل البحيرات والمياه التي لا تعرف التجدد، ما عادت الطفولة تشبه الطفولة ولم يبق منها سوى ألعاب في المتاجر تقلد دور الألعاب القديمة، وتتكدس ولا يقرب رفوفها أحد، هناك بدائل إلكترونية تذهب طعم الطفولة شيئا فشيئا و تميت البراءة تدريجيا، ولم يبق الشباب شبابا إلا في أبيات القدامى وزمان كان يتمتع بطعم البسالة والمروءة حيث يقود الشاب ويتزعم ويدبر ويخطط ويسير أمما ويشيد ،استبدل الشباب السيوف و الأقلام الصوارم بالهواتف المسنة العاجزة إلا عن تبليغ التوافه و مقايضة الفارغ بالفارغ... نسيت أخطر دخيل على مجتمعاتنا إنه "الفايسبوك" إنه دعوة إلى التخلي... عن التمسك بالحد الذي يفصل بين الذكر و الأنثى حيث أصبح الكل يدردش دون ضوابط ،أين أصبح الكل من المحارم و لا فرق بين الأخ من الرضاعة و"الأخ" من الفايسبوك أصبحت العقول تتقلص شيئا فشيئا و الأجساد تودع الشباب سريعا و تصفر

وتذبل بسرعة أمام طوفان الحمض القاتل ،لم يعد بإمكانهم سوى النظر إلى الأرضية و كأن السقف بعيد جدا أرادوا تغيير سنة الحياة بالقوة و استعمال حيل التكنولوجيا باقتناء كل ما يجلب السعادة، إذا كانت النفوس كبيرة تعبت في مرادها الأجساد بل العكس ما يحدث إذا كانت النفوس بالحماقة راضية سعدت في مقابلها الأجساد، لم يسلم حتى النساء من هذا الاستعمار الغاشم والجميل جدا....لم أسمع من قبل بأن المستعمر يجلب معه الخيرات و السعادة للبلد المستعمر إلا في زمن لم تعد القيم والحدود تهمه كثيرا، أضحين يكتسين العري و للأسف يتبادلن سوء الخلق و كل ما يجعلهن أحط قدرا من قوارير الجاهلية قديما كان يسرد لي أبي و أمي كثيرا عن نمط الحياة القديم ويعتزون به لدرجة جعلتني تمنيت لو شاركت أجدادي عذوبتها لأنني أسمع عن الأصالة ولا أعرف شكلها، كانت المرأة ربما تمنع من الخروج بطريقة قاسية قليلا ولا يسمح لها بالتكلم بصوت عال و لا لبس شيء يخل باحترامها و كيانها تتقاسم مع زوجها مسؤولية البيت ولكل دوره الخاص بحيث لا يتدخل الواحد في خصوصية الآخر بفظاظة، كان الاحترام ما يحكم العلاقات قديما لكن ما أراه الآن يصيب العيون بالعمى والأجساد بالشلل، زوجات تتصرف كالمراهقات ولا تخضع لسلطة الأزواج و لا تعرف للاحترام سبيلا، نساء تتحدى الرجال و تتكلم على طريقة قطاع الطرق ويرتدين أسمالا تشبه لباس غانيات القصور في العهد العباسي عندما آل عزه و حياؤه إلى الاندثار هو الآخر، وتبدلت الأدوار... لا يقتصر المرض على الشباب فقط بل أخشى أنه مستقبلا لن

يعود هناك ما يسمى بالكهولة نظرا إلى أن الكل أصبح شابا، قديما كان الكبير يختلف عن الصغير في رصانة ورجاحة عقله وشكل مشيته ونوع لباسه وقصة شعره وسمو اهتماماته، ذهب كل ذلك التميز إلى غير رجعة حيث أصبح الأولياء يحاولون التظاهر بالكهولة و الحفاظ على المسافة التي تفصلهم عن شباب عابث لكنهم يرتدون ملابس لا تمت لأعمارهم ، بصلة أضحى الفرق بين الأبناء والآباء صعب للغاية ، أواصل السير وأخاف أن أفقد وجه الحقيقة عندما أواصل أو أن أجبر على خسران شيء أحبه، لم يصبني هذا فقط بالدوار بل ما أخافني وجعلني أنظر إلى كل شيء قديم وعريق بعين عاشقة باكية على جذع شجرة بلاستيكي ،إنها لغة جميلة أنيقة خلفها عنترة وقيس ،شعراء المعلقات، عشاقها، عبيدها، خدمها المخلصون، أولادها المدللون، تركوها يتيمة تندبهم وتروي زمنا لم تعد فيه الآذان تصغي والمشاعر تهتز ولا العيون تذرف المياه الباردة المولعة بجمالها، ظلمت في مملكتها وقيدت بأيدي أهلها، أصبح كل ما يقال عنك...آسف لا اعرف كيف أركب كلماتك ولا أستطيع المزج بين حروفك يا له من شطرنج صعب و معقد أصبحت أرملة لا يرغب أيا كان في الانضمام إليك أو الزواج بك ،لماذا ؟ هل كان ابن باديس مخطئ عندما قال:

شعب الجزائر مسلم وإلى العـــــــروبة ينتسب.

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب.

لفت انتباهي ذلك التباهي بغير كلماتك الرقيقة والخجل من حروفك الجميلة حيث أصبحت كلمة: عربي تثير حساسية كبيرة وغيرة ممن يتكلم بغير اللغة العربية، أين العزة؟ هل للناطقين باللغة العربية أم لغير الناطقين باللغة العربية ؟؟ هل حان الوقت كي أبكيك يا معشوقتي التي ورثت حبها عن رسول بعث بها للأمة الإسلامية بأمانة، هل خانتك الأنفاس بعد أن كانت القلوب لا تنبض إلا بك ولا تدق إلا لك ولا تترنح الأنفاس إلا وأنت بين حناياها، أصبح الكل يتحججون بأنك لغة دينية رجعية .... أذكر التعابير التي كان يرسمها وجهك اللطيف عندما وجدتك قرب الدكاكين تنظرين بحسرة وتسألين أين عروبة هؤلاء، كل اللافتات التي تعلو قمم الحوانيت بلغة المستعمر تذكرت حينها إنه الشيء الذي مات من أجله جدي وجدك وفقد ملكه وخسرت ملكك. إنه ما حاربه المليون ونصف المليون ينشدون الموت الكريم في سبيل استرداد عروبة ووطن ضائعين، لم تعد لنا الجزائر وطنا ولا العربية لغة ولا الإسلام دينا ....كلها شعارات كتبها عبد الحميد ابن باديس و رجعت كي ترقد معه بسلام وتختلط دماؤه بحبر كلماته الطاهرة، لم يعد لها مكان بيننا ولا حتى في ثقافتنا ،نقيم بأفكارنا المستعارة في بلد لا ننتمي إليه و لا نؤمن بأننا ضائعون على خريطة لا تنتهي من هوية تائهة و ضياع لا يملك حدود و انتماء مجهول بعدما فقد عروبته، لا يملك شرقا ولا غربا ولا حتى أرضا أو بحرا، غير سماء ملبدة بالغيوم بعيدة المنال ومرتفعة جدا اسمها العزة المفقودة التي اغتصبها التقليد فأخذ منها صفاءها وزرقتها الجميلة ،تمطر حمضا يؤجج العطش الذي

لا نهاية له ،كانت لغتنا منفانا كلما ضاقت الحاجة بصدورنا و بلغت المشاعر والأحاسيس الجميلة الحناجر ، آوتنا كما تأوي أجسادنا الأوطان فقدنا الوطن الأم فأين هي الأوطان؟؟

أصبحنا منفيين في وطننا المزعوم.....صارت الكلمات الغريبة عن قواميسنا إرهابا يذبح كل من يرفض تطليق الأصالة و العروبة و الانضمام لصفوف إبادة أهل العربية وخاصتها، حاولت إبعادها عن عتبة الاسترجاع لأنها جد مؤلمة أن ترجع بنا الذكريات، من الصعب أن تصبح عبدا بعد أن كنت سيدا والأصعب أن تخدم سيدك في قصر كان لك في يوم من الأيام، فتصبح حدائقه و عصافيره عنك غريبة حتى الأرض و السماء بإمكانهما أن يتبدلا ،اشتاقت العربية أن تداعب شفاهنا كما كانت تفعل مع أسلافنا و أن تنبض بها قلوبنا مثلما كانت تفعل تحيى لأجلها وتموت لأجلها، تمنت لو تعود لاعتلاء قمم الدكاكين من جديد، أن توضع على جبينها و تكتب بالخط العريض وتدلل حروفها التي خلقت حرة و عذبة، أستغرب عندما أزور إحدى المعارض التي تقام سنويا وخاصة ما يتعلق منها بالثقافة و التراث أتجول هنا وهناك أبحث فلا أجد غير اللباس والحلويات والأفرشة المتنوعة و الزينة التي لا تساوي كثيرا أمام شيء ضاع ولم ينتبه له أحد....لا يؤكل ولا يلبس بل جزء لا يتجزأ ،لا يمكن خلعه أو تقيؤه....أين اللغة المفقودة؟ أين حلقة التراث الضائعة؟ تسربت كما تتسرب المياه بين ثغرات الأصابع، نسينا كيف نتكلم؟ ماذا كنا نتكلم؟ ذهبت الفصاحة إلى حيث لا رجوع، تخلصت ألسنتنا من كل ما تبقى منها

كما لو نتخلص من ثياب الموتى خوفا من الأشباح أو زيارة أرواحهم الظريفة ،بل صرنا نخاف حتى من الأماكن التي تتردد عليها الألسنة العربية أو العقول الفصيحة، أين قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال "تعلموا اللغة العربية فإنها تزيد في المروءة" بل أصبحت لغتنا الجميلة أعشاشا هجرتها طيورها إلى نهاية لا أفق لها ، صرت أستغرب عندما أسمع أحدهم يتفوه بطليقة العرب أصبحت تحمل تاريخها و ماضيها الجميل كسلة من السراب الميت أو الذي لا يزال يحتضر نحو مكان لائق للدفن ،لم يعد لها مأوى تلجأ إليه ،لعنها زمن غادر و أصبحت تهيم دون أوطان.... ؟ سأواصل السير بالرغم من طول الطريق ووحشتها فعادة أفضل السير بجانب الرياح فإن أحاديثها أصدق من البشر بكثير .... ربما سأجد عند الحافة من يشبع جوع تساؤلاتي. .....منذ انفصالي عن الجامعة برخصة عطلة صيفية جميلة و قصيرة جدا لأنه لا شيء بقي على حاله ،لم أحظى بشيء مميز ولا بعناوين جديدة ولا أرقام و لكن أفكر في طريقة تجعلني أبقي على كل من أحببتهم بجانبي وأبني لهم أرقى القصور في مخيلتي ليعيشوا فيها بسلام، وأبعدهم عن مجاعة الأيام و الشهور والسنوات، كنت آخذ قيلولة وعند استيقاظي مررت بجانب الصالون وإذ بكلمات كالمطر تهطل و يجرها صوت عذب و ترقص على موسيقى هادئة بنغمة قسنطينية إنها أشبه بنغمة أعرفها ولم أستطع تمييزها و التعرف عليها، قررت الانضمام للصوت و الصورة معا كي أعثر على تلك الكلمات وإذ بها تمثيلية رواية "ذاكرة الجسد" للروائية أحلام مستغانمي قد بدت التمثيلية أو المسلسل أكثر جمالا

من الشخصيات الورقية و الكلمات الجامدة على الورق تابعت القليل فقط ولم أستطع أن أربط بين الأحداث لأنني بصراحة لم أقرأ لها أبدا، لست أدري؟ كنت أشعر دائما أنني لست مستعدة لكلماتها الثقيلة التي تتحملها عناوين رواياتها ،إنها مليئة بالمطر ولكن لست أفهم لم لا تزال صاحبتها متعطشة لولوج ثغرة في ذاكرة التراث والتاريخ لكي تسكنها وللأبد وتبحث عن الرجل الذي رسمته براءة طفولتها التي لن يرضيها تشبيهه حتى بالإله إنها تبحث في كل كتبها عن ذاكرات وتواريخ و ليس تاريخا أو ذاكرة واحدة تهطل الكلمات والمشاعر والجمال في أروقة و طيات الكتب لكنها لا تنبت شيئا بل تفتح أبوابا جديدة للهذيان و الجنون و تصنع جدران من الزجاج الخشن و فراشا من النسيان ترقد عليه الحقائق التي لم تعد تعترف بالتواريخ....لا يهم المهم أني اكتشفت شيئا في روايتك أحلام و قولا همست به بين ثنايا الآلام الجميلة المضمخة بالأمل المستحيل ،أن الكتابة رائعة و الأروع فيها أنها مكان لنقتل فيه من نحب ودون أن نعاقب، أو تتعرض كلماتنا إلى التحقيق والملاحقة، ونعيد الحياة لكل من نحب....أن نمنح فرصة لكل نهاية مفتوحة.....الرواية عالم تعيش فيه الأشياء المستحيلة والعذراء، هي هروب من قوانين البشر الجائرة إنها مكان حيث لا وجود لبيوت العنكبوت ولا الطفيليات التي تنمو في ثنايا الحقيقة فتحيلها عفن، لا وجود لصكوك الغفران ولا مجال للاعترافات لا تعترف الرواية إلا بالخيال الحر، لا تمزج بينه وبين الواقع المر، يصاب فيها القارئ بنوع من "المازوشية" فيجد نفسه بين نفسية تتعذب بما تعترف وقلم

يستمتع بما يقول ويكتب ، لا يوجد مكان يمكن أن تأوي إليه الأنامل اليتيمة سوى أوراق ترفض عبادة الكذب، والانحناء لملوك لا يشبهون البشر، كثيرا ما تصل في عالمهم الواقعي جدا إلى حد تكره فيه أن تسمي نفسك بشر وأخرى ترفض فيها أن تكون من البشر ، تجعلك الكلمات النائمة على أكتاف بعضها ملاكا يأكل ويشرب ولكن لا ينام كالبشر ، تنام الجفون و لكن أجنحة القلب لا تهدأ..... نعم أحبك .....لكن أعذريني فقد أخطأت كثيرا، الطيور لا تسكن أعشاشها مرتين أردت أن أحفظك في بساتيني وأسكبك في عيون وردودي.... رسمت كل شيء فوق الماء ولكن للأسف لا يمكننا الرسم على المياه، بنيت لك قصرا من قصب السكر ومنحته لدفء الشمس كي يجف أكثر.... سرعان ما سكنته عناكب الوادي وحنطت قصبه بكفن أبيض .... فارقه الدفء فبدأت جدرانه تتكسر، لم أندم ولا أحب الرثاء صدقا، اذهبي وسيري بين حقول القمح الأصفر وترنحي بين أشجار الصنوبر الأخضر اجمعي ثمرها في سلة أحلامك الأخيرة، لا تنظري وراءك أبدا نصيحة مني.... فاحفظيها بين حنايا منديلك المزين وعلقيها لكي تتعطر برائحتها الأيام ولا تدعي الذباب يقربها ويلسع عطرها.... لا يمكن غسلها كباقي المناديل.... هناك طريق جميل بعيد عن الحقيقة لا يتسع لاثنين.... إنه لا يتحمل وجود نَفَسَيْن....

. أخاف أن تسأليني في يوم من الأيام عن حال المكان الذي كان يجمعنا فأقول حينها لا أدري؟ ... وأظل أقلب أوراق الشجر الصفراء التي أتعبها الخريف

المليء بالرياح التي ذبحت الأوراق عن أغصانها الجميلة لتتركها تتقاذفها الأقدام.... لا أريد أن أتخيل...أن أصف لك الدمن بعد رحيل أهلها والأوطان بعد مفارقة أهلها لترابها حيث تشتاق تلك الجدران والأروقة للأيادي التي كانت تحجب عنها العواصف الموجعة، لن أكذب عليك وأعدك بأن أكون قوية، لكن سأرسم صورة الحقول التي كنت تعشقينها بلون السنابل التي صبغها دفء يديك ،الثقة بيننا أضحت كجرم سماوي يسبح في العدم فما أجمل الصداقات الزائفة فهي لا تكلفنا الكثير من الدموع ولا تأخذ كثيرا من الذاكرة، سأكتبك رمزا وصمتا كي لا تعجز السمفونيات عن الاستماع لموسيقاك الخادعة كالأبيض والأسود... سأدعك تذهبين وأعدك أني سآتي في أحلامك وأخبرك ماذا حدث و كيف صار الخراب بعدك روضا بديعا ،اذهبي بسلام وارقدي كما يرقد الأموات...لا تحدثي ضجة كي لا توقظي بقية الأموات... لن أسرد إلا عند قبرك ولا توجد عندي قصص لجميع الجيران... ولا أملك ياسمينا لأضعه على بقية قبور الأحياء التي تولد في الظلمات .

كنت بالأمس أشتاق... لكن أصبحت أشتهي الإقامة بين الأموات، لا تبكي على قبري فكلنا سنصبح أموات لا تحزني أبدا ،فالقلم يجيد الدفن و رسم الذكريات ،كانت أيامنا قطن إلى أن بللها الألم ...تلوث البياض و صار ثقيلا يتعفن فيه الألم ...لا توجد هناك أوهام المقاييس ..سوى مقياس القدر ،وحده من يسمح لنا بالرقص على أنغام النفس و العزف على أوتار الحياة ،هي من تعطي للكلمات حقها و تمنحها حق التسكع خارج أوكارها ،هناك فرق و

ليس الكل كتاب لا يستوي الذي يكتب للحظة خذلته فيها الحياة فينتقم بالقلم و يحرق بعدها ما كتب ،و من يواصل السير مع القلم ...المزهرية التي كانت تتسع لآلاف الورود أصبحت الآن لا تتسع إلا للملايين من الأشواك لم تعد الحقيقة تهوى الأقفاص كي تشعر بالأمان فما عاد في الأقفاص إلا الخوف و الألم ،لا أستطيع أن أغير الحقيقة بكلماتي لأنني لا أهوى إرضاء القدر ،إننا أشبه بقطع السكر المتجمدة بجانب قهوة مرة باردة لن أمنح لجرائم القدر خلودا بالصور الكاذبة ،فالضوء المنبعث من الجماد مخادع جدا بل سأرسمها بالكلمات و أعلقها على العناوين الكبيرة بمظهرها البسيط المجرد من فوضى الألوان، لا أحد يقرر متى سيموت بل سأمنحه خلودا لن يموت أصدق المشيعين كتاب و أصدق الدعوات كلمات الكتاب ، أجمل الأكفان بياض الصفحات ،نعم ما أجمل البياض، إنه لا يعرف التمييز الأدبي ،إنه طفل بريء تطبعه كما تشاء براءة الألفاظ والعبارات ،سرعان ما يتبنى المقدمات لا يخطئ الطريق أبدا و لا تلهيه زخارف ولا رسومات يبحث عن قضية تدافع عن الشفافية و الصدق، يسير ثابتا و يعبد مع المبدع طرق النهايات ....الرواية عالم يُعصى فيه القدر و لا يُكتب إلا بلغة المطر التي لا تترك على الأوراق إلا أثر البلل..

.... عدت. بعدك ...كان الرجوع صعب جدا. هل سأستمر في التناسي؟ هل سأظل أبكي الأيام بصمت؟ تمنيت وقتها لو التقطت لنا صورا ولو خفية، أريد أن أسجن كل اللحظات معك داخل ذلك الإطار الخادع الذي يرسمنا

بطريقة مختلفة عن الواقع، إنه يعذبنا بأن من نحب لا يزال طيفهم ملكنا ولا تزال جذور الحب تنمو بأعماقنا، لكنه يساعدني كثيرا في الاستمتاع بطيفك كلما غادرت ملامحك ذهني أو حلقت بعيدا .... كنت كصبية تنظر من وراء زجاج النافذة غارقة بعالم يختلف كثيرا عما يحدث في الخارج ...تنظر إلى لعب رفيقاتها متسائلة كيف تلعب مثلهم؟ كنت أستدعي شيئا غريبا جدا .... صوت الأجراس في كل مكان .... أسمع أصواتكم تداعبني كما كنتم تفعلون لكنها تبدو كنحيب الموتى خائفة كمن يخاف الموت؟ أتحرك بثقل كبير وأنا التي أقسمت على النسيان، لم يكن أمامي خيار حينها إلا أن أجرب المشي على آثار أقدامكم وملامسة أنفاسكم العالقة بين تلك الجدران والجمال الذي لا زالت تحتفظ به ورود ذلك المكان، لست أدري؟ لم رأيت كل الأماكن تنزف؟ الكل يردد لفظ "الخسارة" ويبدي الألم وتعتصر تقاطيع وجهه زوايا مظلمة لا تعرف ضوء القمر، هل كلهم يشعرون كما أشعر؟ إنهم يعتبرونها حدثا عابرا يحدث كل مرة أو ضجة تعصف بالمشاعر وأصحاب القلوب الضعيفة ثم تمر، ليت النسيان كان سهلا مثل الكلام، أفكر من جديد ثم تعيدني موجة الذكريات إلى فكرة التقاط الصور لماذا لا ينتهي هذا الندم والتردد؟ تنتابني سعادة ساذجة عندما قررت أن لا أحبسكم في الصور ...سأدع الزمن يمر ،لأنه....في الحقيقة أنتم لا تشبهون تلك الوجوه في الصور ....إن الكتابة نوع آخر من التصوير لكنه أكثر صدقا و تواضعا يرسم قلوبا لا وجوها فقط لأنها وببساطة لا تكفي وحدها للذكرى و لا تصلح للتعليق

على الجدران ... للحزن أكثر من طريق و شكل ولون كما أنه يملك موسيقى خاصة به ، إني أعزف على أوتار الغياب بحروف أسمائكم و ألوان الغياب و أشكال الصبر ....أتذكر جيدا عندما أخرجت تلك الكلمات في إقامتنا القديمة التي ستظل تبكي تلك الدموع و الابتسامات و تنير لها تلك السماء التي عشقناها بشموع لا تعرف الذوبان أبدا .....بدأت مسيرة جديدة و أنت غائبة عن تفاصيلها كل الغياب ، لم أفهم شيئا من زيارتك القصيرة سوى رسالة تخبريني فيها أنه لم يبقى كل شيء كما كان ، انقلب كل شيء و ذابت الأصباغ جميعها و انصهرت....بدأ مسار آخر جديد تعددت أبوابه و أغلقت نوافذه و بدأت رياحه القارسة تلفح الوجوه ، رحل كل شيء على الرغم من أنه لم يكن هناك شيء ،بدأت أبحث عن كل الكلمات ، عن كل التعابير التي كنت أراها....لقد حان الوقت لاستدعائها...أحسست حينها أنني أصبحت مشجبا تعلق عليه آمال الآخرين أصبحت وجهة تفر إليها القلوب الخائفة، وتنكسر عند حافتها الدموع ، كل شيء ينام في أفق الأوهام و لا يعرف إلا الشروق كل يوم...شيء واحد فقط أثار اهتمامي مع بداية المسيرة الجديدة ،أحيانا تكتسي القلوب والنفوس ريشا ناعما يمكنها من الطيران شيئا يدعى جناحين لكنها سرعان ما تكبر و ترحل معها العقول أيضا و كل ما من شأنه أن يجعل الإنسان جميل، ما عادت تلك وجوه المدن التي أعرفها تغيرت تقاطيع الوجوه فيها كثيرا ،أصبح الهروب دواء يباع في متاجرها، لا زلت لم أفهم ماذا حصل؟ كيف يفكر هؤلاء المثقفون؟ هل التخلق بالفضيلة أضحى جسرا تسير

عليه الأماني المتعفنة؟ أم أنا التي تحلم أن الفضيلة زمرة دموية لا تتغير مع مرور الزمن؟ من الصعب أن تلقن الناس كل يوم من تكون...لا أظن أن الأمر يحتاج إلى الجهاد كي يقول الواحد منا للآخر بأنه إنسان ....لازلت أصادف غبائي في الكثير من الناس و جهلي يقتلهم مثلما فعل بي ، لا أريد أن يتحملوا نفس المصير ...إليكِ أنتِ فقط أقول هذا الكلام إنه من الغباء أن تعتصري من الألم داخل فراغ لن يردد إلا صوتك و لا تعكس قطرات الندى فيه إلا صورتك المشوهة في كريات مبعثرة تبكي على صدر الجدار ،ليس فرضا أن نعيش في الأوهام من أجل من نحب ،بل الجرم في أن نتخذ غير الله مُحِب لا يحق لنا أن نسجن أرواحنا في أنواع غريبة من الحب، إن التحرر من التبعية جنون يرجع إلى المجانين عقولهم، إنه يضع كفه الحانية على أوتار النفس البشرية التي تكاد تتقطع من الصراخ في العدم ويربت عليها حتى تهدأ...إن الجمود لا يصنع من البشر إلا دمى لا تصلح حتى لسد الحفر و الثقوب....

_فصل آخر وموسم جديد، بدأت أحلم من جديد ظننت أن موسم الأحزان والجفاف قد انتهى، لكن هنا تبدأ الأحزان تعود الشقوق والتجاعيد ترتسم على وجه الطريق الذي لطالما امتد واتسع.... أذكر أنني رأيت الأغصان الخضراء كثيرا في المنام ولكن لم تصبح حقيقة بعد، أصبح كل شيء مختلف لا أطيق الاستماع وأن أميل إلى تقلد دور المستمع، أحب أن أتكلم دون توقف إلى أن ينتهي كل ما بداخلي ويعدم بعيدا عن صدري، كل فكرة جميلة تحترق ويختفي معها الرماد كي لا تعود من جديد، ماذا؟ إنه موسم الانهيار ....

بحثت عنكم بين ذلك الغياب وأنا أنادي... أين التي كانت بالأمس بينكم" أميرة" تمتلك العالم بوجودكم معها بأصواتكم، بقلوبكم وتشابك خيوط الأمل التي كانت تقربكم، لماذا أتيتم لزيارتي؟ لماذا لم تقبلوا القدر بدل الاشتياق؟ لم أكن أعرف ما تقوله عيونكم لكنني الآن من دونكم كبيرة أرى كل شيء وأسمع أي شيء لم تخبروني أن الغياب صعب اكتفيتم بترديد عبارات بعيدة كل البعد عن المستساغ والمشاعر المألوفة، كم غريبة تلك الابتسامة بين الدموع.....وما أصعب الانكسار...كثيرا ما كنتم تشبهونني بالقارورة الجميلة...لكن ما أبشع القارورة عندما تتعفن فيها المياه...والأبشع أنها لم تعد تتسع لاحتضان الكثير من الورود والأشواك.... والمياه.

ـــكل شيء يسير نحو غموض أكبر، لم أستوعب بعد كيف يتعامل الناس وكيف باستطاعتهم أن يتعاملوا عكس طبيعتهم ، يعشقون الجنون وهم العقلاء يمقتون و هم الذين تغرق قلوبهم في حب يختلف كثيرا عن الحب الذي نعرفه، و جدت أنه من الصعب أن تقول لأحدهم "أحبك" "أعزك"...من الصعب أن تغرد بمشاعر لن يفهمها الآخرون كما يغنيها القلب بصدق وعفوية مطلقة، أحدهم يتصرف تجاه الصدق الذي تحمله بدرع ثقيل من تجارب قديمة جدا بالية كالأعشاش التي لم تعد تصلح للسكن ـــ والآخر تخونه الثقة وصفاء النفس كثيرا ـــ.....لكنهم ينقلونها معهم بل تهاجر معهم أينما ذهبوا....لم يستوعبوا أنهم سجناء تجارب عقيمة تظلم قلوبا كثيرة بل تجعلها تلعن الحب وتكفر به وهو الذي من أغصان الجنة أثمر، ليس ما أثار اهتمامي الأدب بل حدث في

مشواري كل شيء إلا الأدب....كان مجرد بوابة أتت بي إلى عالم وجدت نفوسا غريبة تصلح أن تكون مواضيع رواية لا تملك بداية أو نهاية ...جعلتني أدرك أنني لست وحدي لست أنا فقط من تتميز بكثير من الغرابة ،الآن كل شيء مختلف عن ذي قبل....أعجز عن الضحك والأَمَرْ أنني لم أعد أجيد كيف أبكي، تغيرت كثيرا في طريقي للبحث عن هوية وتفسير لكل ما يدور حولي وكلما حاولت أن أعود أدراجي لم أجد أناي التي تعودت عليها، من المؤلم جدا أن يمنحك الناس كل شيء، حينما يصبح اللقاء مستحيل وما أصعب أن يعدك من تحب بموعد في دنيا الأحلام ....وأن يبتسم لك من تحب، لكن حجم النور يتضاءل في وجهه كشمعة تعلن عن بداية ظلام سرمدي ....

_ من المؤلم أن يجعلك الناس تخضع لجاذبية تجارب سابقة مؤلمة ، سئمت الصراحة أحيانا ...لكن سأستمر كالمعتاد، عاد الألم من جديد و عمت الفوضى ..إنها السنة الرابعة الغريب في أمرها أنها لا تمثل امتدادا لأي شيء ،كل شيء سيبدأ من جديد ،إنها متاهة أخرى من متاهات القدر ...تغيرتُ كثيرا في ظرف شهور وتغير كل شيء في غضون ثوان فقط ،أعود وأبحث عن مركز ثقل يحملني من جديد ،أصبح الاستمرار مزعج والصبر شعور قاتل، تغيرت كثيرا دون وعي مني أو إذن من الزمن... وجدت الآن حتى صعوبة في التعامل مع نفسي، بقي عام واحد فقط وأصل إلى نهاية تكويني الجامعي كي أرحل بهدوء وصمت شديدين، وجدت الانتظار قد بدأ يثير الجلبة و يضيق

معه الفضاء، حبي الشديد لبعض من أساتذتي قد خفف قليلا من تناثر دموعي حول نفسي المتألمة...لكنه في نفس الوقت كان يحزنني بشكل أو بآخر، أحبهم لكني أيضا أكرههم، أشتاق إليهم ولا أريد لقاءهم، عجيب أن العالم قد يسع مثل هؤلاء، لكن هناك "أسطورة" لا تشبههم كثيرا «متفردة جدا"..." عنيدة"...."لا تشبه أحدا" لست أدري حقيقة مما قد تتشكل أحيانا أظنه شيء من الحلوى أو العسل و أخرى من القطر أو العلقم المر.. المهم ما يجعلها رائعة...هو تناقض روحها، كثيرا ما أتمنى أن أكون هادئة مثلها... ثائرة... حنونا... قاسية. صارمة.... تعبث بالحب كيفما تشاء، كنت أستمد شيئا من البقاء والاستمرار منها كنت أغيب عن كل ما يحيط بي فيعيدني نورها وسحر معاملتها إلى مداري...شيء واحد فقط يزعجني تجاهها لماذا تعاملني بشك وبشيء من الماضي أو تسقط علي حكم الأغلبية...هي لا تعرف من أكون ولست كما تظن، لست متسولة بالعواطف ...بل لا أعرف للمجاملة سبيلا، كل ما أريده هو أن أخبرها من هي حقا.... لأن الذات قاصرة دون غيرها، إنها جميلة وقوية وملهمة أكثر مما تتصور، أشعر أنها الوحيدة التي تستطيع أن تفهم ماذا تريد مروي ومن تكون؟ لكن كالمعتاد ستظل وردة محاطة بأشواك ....

_نعم الرفيقة هي...إنها هبة من هبات الخيال الحر...كنت أتوق للذهاب والمغادرة باكرا، لكن كل شيء تغير ولم يعد كسابق عهده، إنه أشبه بحلم جميل بعد يوم شاق جدا. تغيرت.... نعم، لكن براءتي و مشاعري لم تتغير تجاه ما

يحيط بي من الكون أبدا، كلما أحاول التخلص من الحب أجدني أعتني به من جديد و بكل كرم و سعادة ،لكنه هذه المرة يُغلفه الكثير من الخوف و الخجل الشديد ،وجدت نفسي تمشي في رواق يختلف كثيرا عن جميع الأروقة التي مشيتها من قبل، في حين كان يتساقط الجميع من حياتي و مجال اهتمامي حتى أصبح الكل ثانويا أصبح الكل متشابها كقطرات الماء لا يختلفون كثيرا... كلما اقترب الفراق أخذ التمثيل يكبر وتطفو بقع من الغموض على السطح ....وجدت أن الكل ضعيف أمام كلمة واحدة قاوموها بكل ما يملكون حتى القوي منهم صار لا يعرف كيف دخل المتاهة وكيف سيخرج منها ،أذكر أن إحدى زميلاتي تتعجب عندما تراني حزينة فكثيرا ما تقول أن كل من يحيط بي قد ألبسوني تاجا لكنها...لا تعلم أنه سبب جميع الآلام ،كل شيء عما قريب سينتهي لكنه ما زال في البداية و لم أفهم من هذا العالم الخاص جدا شيئا.....أريد أن أستمر في العيش كطفلة لا تأبه لما يحدث في خارطة الكون من زلازل وأعاصير...لا أحتاج إلى أن أكون كبيرة أبدا لأن اللامبالاة والاندفاع الذي يملكه الأطفال هو ما يجعلنا نعجب بتلك التصرفات التي تجعلنا نبكي ضحكا... وننفجر إعجابا ببراءتهم، لا أحتاج أن أمثل المسؤولية والنضوج يكفيني ما يفسده الزمن من تقاطيع للطفولة الجميلة...عندما أكون طفلة لن أهتم بتعابير الوجوه وسأفسر جميع الكلمات على نحو جميل ولن أظلم أية ابتسامة أو كلمة ...ربما وراء كوني لا أزال طفلة هو أن "أمي" و"أبي" لا يزالان يعاملانني كأميرة صغيرة ذات الخمس سنوات أو أقل فهما يبديان

شغفا كبيرا في بقائي صغيرة ويصران على أنني لن أكبر، ربما منحاني طفولة قلب لا يشيخ أبدا ولا يكبر ،يظل بريئا ولو مزق إلى قطع وأطعم للموت من الجميل جدا أن أكون طفلة صغيرة تلعب بموازين الكون وتتأرجح بين دفتي الحياة بعبث و فوضى لا تعرف هدوءا ولا صداعا، لأن الكبار من حولي قد تعبوا جدا في زمن لا يدع الكبار يعيشون على طريقتهم ويمنعهم من ممارسة اللعب البريء كما أفعل....أتذكر مثلا رائعا تردده والدتي كثيرا تقول لي: بنيتي ما أجمل أن تكوني ملكة في زمن كثرت فيه الجاريات وغالية في زمن كثرت فيه الرخيصات ونسيت

أن تقول وطفلة في زمن نشتهي أن نكون فيه بريئات....

_لا زالت نفسي تمارس غموضها الذي يمنعني من أكون عادية وأن أرضى بالعادية، أتعب كلما عشت على طريقتهم، بل أخنق شيئا في نفسي لو أسمح لعيوني أن ترى العالم بمنظارهم، يصيبني الحزن والشقاء عندما أمارس الأشياء المستهلكة، لست أدري لماذا؟

– أطير بروح حريرية الملمس وهي تحمل نورا على لجين يتألق ابتعادا وسموا عن عالم البشر العادي الممل الذي تعبث فيه الرتابة إلى درجة تصيب بالغثيان. عندما أرى كل شيء جميل مثلما وجب أن يكون، ربما تلك الجمهورية التي تتجمع بنفسي لا تختلف كثيرا عن الجمهورية الأفلاطونية، لكنها تتمتع بشيء من المنطقية، فما أجمل أن نزين كل شيء بشريط المنطقية السامية.

لست أحب كما يحبون ولا أملك في قاموسي لفظ "أكره" بل أفضل أن أستدعي لفظا آخر يحتفظ بشيء من الإنسانية وهو "لا أحتمل"، لا أتمنى سوى أن أرى الكون لوحات تشوبها فوضى الألوان وطيش السعادة يملأها وإطار من صدق يحفظها ويقيها بلل الزمن.

_الجامعة عالم بإمكانه أن يمنحك كل شيء وأن يسلبك كل شيء، إنها مدرسة لشيء واحد فقط ...هو كيف نوجه دفة الحرية، ماذا نفعل بكثير من الغياب لأشياء قد تعودنا عليها، وما أصعب وأضعف من يعتاد غياب الخالق، رأيت كم هي سهلة عندهم الخيانة...الكذب. النفاق...كم سهل هو بيع الأخلاق والأجساد والأرواح...كم مؤسف العيش في الأوهام ...أحس بنوع من العودة إلى الحياة عندما ألتقي مجددا بالعادات والتقاليد وأتعجب من حديث أحدهم على مسامعي عن شيء يدعى "الأخلاق" أصبحت أرى كل من أبقى على شيء منها ملاكا أتطهر بأثره وأمسح بطرف ثوبه عله يسرب إلى شيئا من قيمه...وقداسته.

_"س" سأبتدئ الرحلة من وقع خيانتك وغدر كلماتك ، أخيرا سقط القناع الأخير المظلم ،علمت أن كل ما كنت تتحدثين عنه مجرد وهم أو شيء لم تعيشيه من قبل أو أن قلبك لم يعاقبه القدر كفاية ولم يعذبه البشر كثيرا ،شيء ما كان يرقص في عينيك حينما كنت تتكلمين عن شيء مثل الوفاء الذي لم يستطع بشر إهداءه لمن يحب على وجه الأرض، كان نوعا من الإنذار المسبق

بطعنات سأنزف منها جليدا لن يتكسر مجددا أمام القلوب الصادقة قط، كل شيء كان عاديا وجميل ....عندما بدأت أقتنع أن هناك من لا يشبه الآخرين، قلبت كل شيء... أفسدت روعة الهدوء... بدوت عندما تكلمت أكثر قساوة ممن كنت تتحدثين عنهم ، تعلمين أنني أتحدث عن شيء تعرفينه جيدا في نفسك...وهم سيقتلك عما قريب إن لم تكسري المرآة التي تعكس نرجسيتك المخيفة ،لي كامل الحق أن أتحدث مع أوراقي عن غرورك ..لأنك ببساطة لا تملكين سلطة على أقلام الناس كما تتملكين ألسنتهم و أساليب عيشهم ،كنا أحداثا واقعية تمشي وتتحرك حتى أصبحنا لوحة صامتة معلقة على جدار الماضي، عندما أعود إلى الوراء قليلا ،أجد أننا كنا نكذب على بعضنا بطريقة تدعو للبكاء والنحيب، كنا أفضل ممثلتين... واحدة بريئة و الأخرى خبيثة... سيدة تخطط لنهاية مسدودة و طفلة ما زالت تؤمن بالنهايات السعيدة، ولست أدري أيهما كنتُ أو كنتِ ؟يقال :أنك إذا تقربت من أحدهم فجأة أو عدت إلى إنسان كان بالأمس لا يعني لك شيئا فاعلم أنك تبحث عن بديل لإنسان قد خذلك...أعتقد أنني كنت بمثابة ذلك البديل...هكذا إذا هي الحياة أشبعتك ضربا قبل أن تصلي إلي و تمارسي حقدك عليها بالرفس على صدقي...لماذا لفظك القدر بهذه الطريقة ...لقد قلت لك أن حياة المرايا خطيرة ...لقد أصبح صباحي ومسائي يختلف كثيرا عندما غادرتني تلك الهالة من الغرابة التي كانت تمنع عني الهواء النقي...لماذا تلبسين نفس الفستان. الذي كثيرا ما ترتدينه في حفلات الخيبة والخيانة.

_تعلمت أن كل ما يحيط بنا عبارة عن موسيقى...كالأشعة لا ترى لكنها إذا ما وجدت جسما شفافا تفككت ألغازها وتفرقت ألوانها...لترسم صورا غريبة لأرواحنا...بعضها من ترسمه باللون الأسود كثيرا.... ومنها من تحتكر لها جميع الألوان.... وأخرى تتنكر لجميع الألوان. إنه فصل آخر اجتاح أوراقي ولا يختلف عن صحرائك كثيرا.

_ شيء ما تغير بداخلي عندما وردتني اتصالاتك، بعدما ذهبت. لم تكوني هكذا في عامك الأخير...كنت قاسية جدا...من أين حصلت على هذا الحنان...من أين ابتعت تلك الكلمات...أعدت خلط الأوراق من جديد. من فضلك "ح" لا تعيدي الحياة إلى مجرى نضبت مياهه منذ فترة...كنت أسألك كثيرا ...فأجدك تتهربين من الاعترافات كعادتك ...وتعوضين عنها بإيماءات وتعابير لم يكن قلبي الصغير يفهمها...فأنت تعلمين أني لا أجيد تفكيك شفرات العيون والشفاه. والآن أضحى لكل كلام تفسير، أصبح للخيانة وقع آخر يشبه إلى حد بعيد وقع المجاملات.

_ سأرحب بذكراك ،سأتقبل زيارتك، وأنتظر دعواتك الصادقة، سأقلب البطاقات كما كنت أفعل، سأدعي السعادة ونشوة اللقاء، وسأدعو كل ما من شأنه أن يجعلك سعيدة، لم أستطع قول شيء في أيام، تدركين جيدا كيف تحجرتُ فيها لكني سأظل أكتبك لوما وعتابا بين السطور خفية و أخنق نار الخيانة تحت وسائد الكلمات، وأحاصرها بكثير من القش حتى لا تنطفئ

النيران بهمجية...عادت "نون" مع بداية العام السعيد، بصراحة سَأصْدُقُكِ، لا أعلم تحديدا لم قد أتت، لكن تسعدني رؤية أغرب أنواع البراءة، اتصلتْ مسبقا وأعلمتني بقدومها... رحبت بالفكرة و أغلقت الخط، انتابني لحظتها شعور غريب عن ماذا سنتحدث؟

_ أمضيت الليل بطوله و أنا أتقلب... شيء ما يمنعني من النوم سمعت صوت الآذان ،قمت لأصلي ما دام النوم قد صام عن زيارة فراشي، حاولت مجددا أن أنام ،لكن يبدو أن النوم قد استحال، قمت سريعا فأخذت أرتب غرفتي وأفعل كل ما من شأنه أن يجعل المكان يحافظ على ما بقي من صداقتنا، استقبلت خيوط الشمس الدافئة بتناقض كبير ،خفت من هذا الشروق كثيرا ،تلقيت اتصالا آخر من "نون" كان المكان يضيق أكثر وكانت الخطوات تتضاءل عند أقدامنا، التقيتها فشعرت بموجة من البكاء تغمرني، أردت أن أصرخ، أن أعاتب نفسي على قرارات وأحداثا جعلتني أبتركم مبكرا من ذاكرتي، كنا بالأمس "أنا وأنت" يجتاحنا فراغ رهيب والعديد من الفواصل ولا يكاد يفصلنا شبر، واليوم نلتقي بالأحضان وقد أصبحت بيننا الأميال ،بينما تسرد تفاصيل حياتها الجديدة لم أفق إلا عندما سألتها :بماذا تشعرين وقد خرجت من هذا المحيط نهائيا ،بدا الخجل بكل المقاييس على وجهها، وكأنها تسترجع حلقة ناقصة، إنها تبحث عن شيء عالق في الذاكرة...تعود إلى شرخ قد حدث وهو ما غير مسار كل شيء، قلب كل المفاهيم والمعتقدات... .لازالتْ غارقة و لازلت لا أصدق أن الأمر حقيقة ،بينما أبحث عن إجابات بين

تفاصيل وجهك، أجابت بدموع، تلك دموع "نون" التي بدت غريبة لأنني أول مرة أرى تلك الدموع ،إنها صورة مصغرة عن الدنيا التي في الخارج، ندخل من باب و نخرج من آخر، لا شيء يخلد الذكرى الطيبة غير الإحسان، ماذا الإحسان ؟ هل هذا ما جئت كي تعترفي به؟ لم أفهم جيدا ما كانت تعنيه، لكن أيقنت أنني ما اجتمعت بكم إلا لأنني أشبهكم، هناك حلقة مفقودة تصلني بكم، الآن أنا أقف عندها، "ح" ماذا عساي أقول؟ كيف سأترجم لك كل ما أمر به؟ ...

_صعب أن تنبعثي من رمادك بين أحضان الغرباء، كم يلزمها من الأعذار كي تُعَبِدَ طريقا جديدة، وكم يلزمني من الجسور كي أربط بين جثث الماضي والحاضر، كان شيء مهم يجمعنا عندما التقيتك أول مرة بالمدرسة القديمة _التي لا أملك فيها إلا أشباحا من الذكريات، ولا أتذكر عنها إلا أياما تُحْتضر في الزوايا، وروائح التحلل تنبعث مع تفتح ورودها المستعارة كل صباح_.

_كان شيئا أحتاج إليه عندك ،و كانت لديك الكثير من الأماني التي خبأتها حتى قدومي وكأننا التقينا في الأحلام قبلا ،أو مشينا في الفردوس معا... شيء ما كان يدق كناقوس فيتكرر اللقاء لا أذكر تقريبا أي شيء ، كأني اخترت قبل ذهابك أن أصاب "بالزهايمر" ، كي أحرم من استرجع كل ما يتعلق بك....سوى محطة جميلة جدا بل عادة اكتسبناها مع مرور الزمن ،كانت تجذبنا نفس الأضواء التي تجعل من "قسنطينة" عروسا غريبة ،فهي لا تختلف

عنك كثيرا، إنها مدينة تسبب الجنون والضياع بين تقاسيم الغرابة والغموض ،أين تختلط كل الروائح وترقص جميع الألوان، يغطيها شيء من الحب.. الحزن اللذيذ...التوهج المحرق...شيء ما جعلنا نعشق "قسنطينة" ونرتبط بها، ليلا أكثر من أي وقت ...هناك سر ما في شعورنا بالتخدر أمام تلك الأضواء...

_نسيت أن أخبرك أننا نشبهها ،كثيرا ما كنا نلعن يوم اللقاء، ولكن سحر ما ،غيرنا وجعلنا نضمها لقائمتنا فأصبحت من أعز الأصدقاء، لم نكن نكرهها كبقية الزملاء كل مساء نجد أقدامنا تطرق باب المحراب ، فنتقاسم الإذن بالدخول ، وننتظر كي نحظ بفرصة خسوف العالم كله أمام ليل قسنطينة الهائج ...الذي لا يتيح للمتعبدين فرصة للنوم الروتيني كباقي البشر، والغريب في الأمر أنها لا تهتم كثيرا بمسألة الرداء...بالنسبة لها رداء الروح العاشقة ،ينافس جميع الأزياء وصالح لكل الليالي ،إنه معنى" الإحسان" الذي تحدثت عنه "نون" تماما ،لم تفعل "قسنطينة" أي شيء مميز ،سوى أنها أحسنت إلينا ،منحتنا لحظات في جنة الليل أين نرتقي إلى الفردوس و هناك ترقص الروح على جميع أوتار الأماني و الأحلام المستحيلة ،أنت أيضا كنت محسنة ليست وحدها "قسنطينة" فقط من كانت كذلك، مَنَحْتِنِي لحظات خلود ،مَنَحْتِنِي زاوية في كل مكان لا تكفي حتى للوقوف على قدمين، لكنها أفضل من لا شيء ، أقف فيها بعد رحيلك كي أمثل لحظة الخشوع من جديد التي تسمح لي باستدعاء طيفك عند حلول الظلام ،فاستحضار أطياف من نحب لحظة

الخشوع يضمن لهم بيتا بين الأضواء ودعاء عند كل صلاة بالسكون ، لم أجد تعريفا لما حدث بيننا سوى كلمات" جبران" الجبارة، عندما يقول:

[إن صديقك هو كفاية حاجاتك، هو حقلك الذي تزرعه بالمحبة وتحصده بالشكر، وتسعى وراءه مستدفئا، فإذا أوضح لك صديقك فكره، فلا تخش أن تصرح بما في فكرك من النفي أو تحفظ بما في ذهنك من الإيجاب. وإذا صمت صديقك و لم يتكلم ،فلا ينقطع قلبك عن الإصغاء إلى صوت قلبه لأن الصداقة لا تحتاج إلى الألفاظ و العبارات في إنماء جميع الأفكار والرغبات والتمنيات، التي يشترك الأصدقاء بفرح عظيم في قطف ثمارها اليانعة ، و إن فارقت صديقك فلا تحزن على فراقه، لأن ما تعشقه فيه أكثر من كل شيء سواه، ربما يكون في حين غيابه أوضح في عيني محبتك منه في حين حضوره ،لأن الجبل يبدو للمتسلق له، أكثر وضوحا من السهل البعيد، ولا يكن لكم في الصداقة من غاية ترجونها غير أن تزيدوا في عمق نفوسكم، ليست محبة بل هي شبكة تلقى في بحر الحياة، ولا تمسك إلا غير نافع.

_وليكن أفضل ما عندك لصديقك، فإن كان يجد ربه أن يعرف جزر حياتك، فالأجدر بك أيضا أن تظهر له مدها، لأنه ماذا ترتجي من الصديق الذي تسعى إليه لتقضي معه ساعاتك المعدودة في هذا الوجود؟

_فاسع بالأحرى إلى الصديق الذي يحي أيامك ولياليك، لأنه وحده قد أعطي أن يكمل حاجاتك لا لفراغك ويبوستك، وليكن ملاك الأفراح واللذات

المتبادلة مرفوعا فوق حلاوة الصداقة، القلب يجد صباحه في الندى العالق بالصغيرات، فينتعش ويستعيد قوته...].

. يقول وليام شكسبير:

[الزمن بطيء جدا لمن ينتظر؛ سريع جدا لمن يخشى؛ طويل جدا لمن يتألم؛ قصير جدا لمن يحتفل؛ لكنه الأبدية لمن يحب.]

_أيتها الورقة الضائعة وسط ملايين الوريقات... أريد للوفاء أن يقترن باسمي، أن يعلن زواجنا على كل مداخل الخيال والأوراق البيضاء، فكل ما كتبته وسأكتبه...ما هو إلا ممارسة للوفاء بشتى الطرق...سأمارسه دون ملل ...فكل إنسان سيصبح ذكرى...وعيب الذكريات أنها لا تضمحل، كما تفعل جثثنا...لذا من الواجب أن اترك ورائي وفاء تنطق به جميع أوراقي ...التي ستظل تدعو لي...في كل صلاة. لكن سأظل أنشد على مسامعك وكما يقال:de bien faire***، ***il n'est jamais trop tard

_ لا توجد في الحياة غير الفرص، ولا نملك في قواميسنا غير "سامحتك" أو "لا داعي للاعتذار" ...سأظل أمنحك كل مشتقات العفو والغفران، ما دامت المحبة لا تكتمل إلا بالذنب والاستغفار...سأهرب منك في كل كتاب، سأغلفه بروحك المركبة كقطع الفسيفساء الجميلة، سأغير مقدماته وأُحَرِفُ جل إهداءاته، وأغير كل ضمائره، كل الحروف إهداء إليك، لن أخصك بالكلمات، فالحروف بالصدق تتجمل، ذهبت بعيدا لكن يبدو أنه عليك

العودة لتسديد بعض الديون، كالعادة سيظل صمتك يهرب بجميع العبارات....

_أصبحت بغيابك أرى أشكالا جديدة من الحياة، أكترث كثيرا لسقوط المطر، وأحاول تفكيك الألغاز، ماذا ترسل السماء للأرض عن طريق المطر؟ هل ستكفي قطراته لسقي جميع الورود، هل يحمل لغة غير لغة السقيا؟

_صرت أستمع إلى موسيقى الغياب بغباء مميز، جعلتني أكتشف أنني أحمل غباء ككل البشر.

.كانت رسالتك النصية القصيرة راقية في كلماتها، سحرية في تأثيرها، جمعتني بك من جديد في غضون دقائق معدودة، من أين حصلت على تلك الألفاظ؟

فأنت لم تخبريني من قبل أنك تتمتعين بموهبة التلاعب بالمشاعر، جعلتني كلماتك أفكر وأسأل نفسي هل أنا محظوظة للفوز بصديقة في زمن أضحت الصداقة فيه أندر شيء، حيث لا تباع ولا تشترى أم أنني خُيِرْتُ كي أشقى بسعادة مزيفة ومؤقتة، جميلة هي لغة الصداقة عن كثب لكن البعد والفراق يجعلها لغة ملكية تقدم على أطباق الأمراء وتستحيل الألفاظ قصورا مملوءة بالمشاعر الراقية التي تسكن الأقفاص المنتشرة بكل أرجاء القصور، فتغرد مساء وصباحا بأغرب الألحان، من أين حصلت لي على كرسي حتى جعلتني فوقه أميرة؟

. سأسكبك كسكر لا يشبه لون السكر....

. سأجمعك بملعقة من ألماس مسحوق...

. وأخلطك بكل الأوتار في قلبي ....

. سأبسطك فوق جميع الورود...

. وأضيف القليل من الصدق والوفاء المحمص...

. وصفتي لا تهتم للمقادير....

. وأنا أغني كل أغنيات الشوق القديمة....

. إلى أن أنصبك على كرسي الدفء في واحة من التبر...

. بمحاذاة شراع الشمس الثقيل ...في نافذة من ذكريات قاسية.

. هذا فقط؛ كي نُؤْجَرَ معا عندما تأكل من السحر الطيور ...

. يقول جبران: [المحبة لا تعرف عمقها إلا ساعة الفراق].

_الصمت يجعل الطريق أسهل في الضباب، الصمت يبني قلاعا منيعة تقف في وجه الذكريات المتداعية، أما الكلام والتبرير كلاهما يساعدان على بعثرة الطرق، أعجز الآن عن تصنيف الموسيقى التي تبعثها السماء، وتلك الكلمات التي تضعها في الطريق الرياح.

. مؤلم جدا عندما يكتشف الواحد منا أن مجتمعه لا يستحق طريقة تفكيره الورقية أو بعبارة أخرى –البخارية–كم هي سخيفة اهتماماتهم وطريقة عيشهم، من أين أتوا بأفكار جاهلية كهذه؟

_لا أريد أن ألبس على طريقتهم ولا حتى أن أتكلم بمنطقهم، لست مقتنعة بالعديد من التقاليد السيئة جدا والسخيفة، جعلوني أكره أني أنثى، لديهم طريقة في التعامل معنا نحن النساء على نحو بشع جدا، لم يفقه مجتمعنا بعد لم خلقت النساء، يمارسون سياسة الخنق والتطفل حتى على أحلامها، لم لا يدع مجتمعنا الذكوري النساء وشأنهم، لم يتدخل الرجل في كل شيء حتى في اختيار اسمها وهوائها وكمية الهواء الذي تستنشقه؟

. أريد أن أعرف ماذا تساوي المرأة عند العالم؟

من الشرق حتى الغرب ومن الشمال حتى الجنوب، إلى أبعد نقطة من الغلاف الجوي لا أحد يفقه كنه هذا الكائن، سئمت هذه النظرة لكل ما يحمل أنوثة في الكون، كرهت كل شيء ينتهي بتاء مربوطة.

. المشكلة أنها قوانين تتوارثها أجيال من حقب إلى أخرى، كلما بحثت وقرأت عن المرأة في الحضارات القديمة، الحديثة وحتى المعاصرة، أجد أن المفاهيم تتأرجح بين اللعن والنجاسة والاستعادة من هذا المخلوق الغريب، الذي يستولي على العقول ويستعبد القلوب، في كل الحالات حتى لو وصفوها بالملاك، فهي عندهم ملاك يحمل داخله نصف الشيطان، لا أتكلم عن المرأة

في الإسلام التي تظل عنصرا في آية نزلت على خير الأنام، ماذا طبق هؤلاء الجاهليون من الإسلام حتى يدخلوا في الإيمان بقدسية وكمال المرأة؟

. أصبحت أفضل العيش في كتاب ،أن أضحك و ألعب و أكتب بين دفتي الكثير من الكلام الذي لا يشبه الكلام الذي خارج الكتاب، بعيدا عن قلم أنيق وورقة... لا أحبذ الحديث كثيرا ،الحمد لله أن الأوراق كثيرة و الأقلام متوفرة في كل مكان ، اللعنة على تلك الجاهلية و الأصنام التي تنام في رؤوسهم ،اللعنة على ذلك المعبد وما حواه من كائنات ،عجبا لمجتمع يقيد رضيعا بالخرافات و يقهر الشباب بالماضي و حكايات "كان جدي لا يرى أبعد من مربع الرعي إلى أن مات"...ويجعلون الرجل شيئا مقدسا تعبده الفتاة، يربطون الثقافة بالمجون وليالي من الغناء الصاخب و التمايل كالسكارى على ركح المسارح اليتيمة.

.كما أن هناك عادات سيئة أصبحت سلوكيات مباحة جدا وكل من لا يمارسها فهو خارج إطار الثقافة والتثقف ومن بينها سلوك لا أعرف إلى حد الآن ماذا سأسميه؟

أتذكر مقولة رائعة تقول : أن هناك رجل دخل أحد الفنادق فوجد لافتة بالفندق مكتوب عليها "إن أعجبناك فتحدث عنا و إن لم نعجبك فتحدث إلينا" .جميلة جدا بل راقية و من كتبها أشخاص لا يفكرون كما نفكر ،يا ليتنا نطبق مبدأ "إن أعجبتك فتحدث عني و إن لم أعجبك فتحدث إلي" ما

أكبر الفراغ الذي نمارسه بوعي كبير منا و رضا عن أنفسنا ، أغبى شيء كرهته يعتلي الوجوه هو كثرة الانشغال بالتغيرات و المستجدات التي تملأ حياة الغير ،بينما جزرنا تغرق و بواخرنا تستقر نحو مستقر مجهول ،لم أكن أعي قبلا أننا ابتعنا كثيرا أو أننا نحمل بمجتمعاتنا أفرادا منتهية الصلاحية منذ ولادتها ،لم يعد بوسعنا التصرف على طبيعتنا أو التكلم بتلقائية لأن من يتلقى ببساطة لا يملك الدفة التي تزن الكلام الجميل ،صرت لا أستغرب عندما نرفع أيدينا إلى السماء كي نستسقى فلا نسقى ،كي ننتظر فرجا فتشيح السماء بوجهها عنا فكما يقول أحد الشعراء:

. نحن ندعو الإله في كل كرب × وننساه عند كشف الكروب.

. كيف نرجو إجابة لدعاء × قد سددنا طريقها بالذنوب.

. كم سئمت الوقاحة بكل أنواعها، الكل بارع في التجارة بكلماتها وتسويقها على مزاجه، وهنا أستحضر كلاما راق مما أحفظ لنجيب محفوظ عندما يقول:

[الوقاحة هي أن تحدثني وتبتسم لي وقد أكلت من لحمي حتى جف لسانك.... والاستهانة أن أعلم بكل ذلك وأبتسم].

لا يوجد تعريف دقيق لها على هذا النحو الجميل إلا تعريف نجيب الملائكي.

. من العيب أن نمتلك كل شيء ولا نعرف كيف نصنع الجمال؟

. قاربت عطلتي الشتوية على الانقضاء و كل جوارحي متعبة من الرجوع مجددا . حتى جسدي لم يسلم من التعذيب . ، أشعر أن إمضاء خمس سنوات على هذا النحو ، "غباء كبير"، تعبت حقا من السعي بين الصفا و المروة، لا زلت إلى حد الآن أطرح السؤال نفسه ؛ هل "المدرسة العليا للأساتذة" هي المكان الصحيح لأحلامي أم أنها مكان رماني إليه قدري من أجل مستقبل ضيق جدا ؟،إنها قطعة صغيرة مليئة بالمعجزات الأدبية و الأخلاقية و الاجتماعية و مع هذا أصابتني بالجنون ، لقد جَمَعَتْ كل عجائب الدنيا وكل ما يخرج عن الطبيعة على وجه هذه الأرض ، كيف لم يصنفوها في موسوعة "غنيس" كأصغر مكان يتسع لكل الطبائع البشرية؛ أشعر برغبة جامحة في التحدث باللغة العامية حتى أستطيع كتابة أكبر قدر من الكلمات التي تبلغني ما أريد، بصراحة في كثير من المواضع تصبح اللغة العربية الفصحى قاصرة و بشدة عن تجسيد ما نريد قوله بمنتهى الدقة ؛ فاللغة العربية تهذب جميع الألفاظ النابية لدرجة تمنح اللوم والعتاب طعم الشكر و الثناء ،أحتاج إلى لغة تتحلى بشجاعة كافية كي تبلغ كل ما أشعر به، سأتخرج و لم أفهم بعد ماذا كنت أفعل هناك ؛ كيف حدث أن تغيرت ؟ لقد تهت بين سيول المارة المتدفقة، ذهبت ذاتي في اتجاه آخر من السوق الكبيرة، فلم أجد في السوق غير الخيال والصياح...إن أصعب شيء هو خسارة الذات؛ عندما يتغير الإنسان، فمن المستحيل أن يعود كما كان، فالشيء الذي تلفحه نيران التغيير يستحيل أن يصبح خاما من جديد.

. بالنسبة لي لم يبدأ عام جديد؛ بل يبدو أنه لن يكون هناك متسع للجديد في حياتي مستقبلا، لقد أصبحت أهوى المكوث في القديم، وهذا طبعا واحد من علامات التغيير.

كل شيء ظل عالقا و ما زال ينتظر صفارة الانطلاق في جولة مختلفة، ذلك المكان يفرض نوعا من الحصار على الحرية ، بل فيه سيوفا تقطف رؤوس لم يحن حتى قطافها[ii] ؛تعلمت من خلال تكويني الجامعي أن أعيش دون عواطف؛ فالعواطف مضرة بالصحة ،تعلمت شيئا من الجمود الذي يكفي لتجميد قارة بأكملها ، تعلمت أن أمثل الإصابة بالعمى حتى نسيت كيف أفتح عيوني لاستقبال النور، تعلمت أن أكتم الحقيقة حتى نسيت الصدق، تعلمت القناعة حتى نسيت كيف أدافع عن نفسي ،تعلمت التواضع الشديد حتى نسيت شكل الكبرياء؛ تعلمت الكثير حتى نسيت من أنا ، من قال أن الجامعة تعطي علما فقط ؛ بل إنها تقدم الكثير من الدروس عن طريق الصدفة والمجاملة و الفشل .

. أعشق الصدق كثيرا وكذلك الصراحة وربما هذا ما جعل العديد يتضايقون من شفافية القلم، يقال: «جل الذين صنعوا الشهرة في حياتهم ماتت بموتهم، لان الشهرة ليست بحجم الأعمال، وإنما بحجم الصدق فيها".

[ii]/ مقتبس من خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي حين قال: [إني أرى رؤوس قد أينعت وقد حان قطافها].

. ما أجمل اليلق ([iii]) في كل مكان، وما أجمله في كل طعام أو لباس، والأجمل عندما يتخلل الكتابة وكل الحياة.

.كم يفتقر مجتمعنا إلى البياض، الجامعات مجرد عينات صغيرة جدا عن واقع متعب؛ تنطبق ويلات جبران خليل جبران علينا كثيرا حين يقول:

[ويل لأمة تكثر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين؛ ويل لأمة تلبس مما لا تنسج وتأكل مما لا تزرع وتشرب مما لا تعصر؛ ويل لأمة تحسب المستبد بطلا، وترى الفاتح المذل رحيما؛ ويل لأمة سائسها ثعلب وفيلسوفها مشعوذ وفنها فن الترقيع والتقليد؛ ويل لأمة مقسمة إلى أجزاء وكل جزء يحسب نفسه فيها أمة.]

لا أزال أتعذب أكثر ،أصبحت فجأة أستمتع بقسوة دخلت شخصيتي عنوة، كل ما نقوم به أؤمن بأنه وحي من الإله و كما يقول- باولو كويلو- أن يد الله تحركنا في كل شيء ،أشعر أني لم أعد تلك الدمية التي تلعب بها الأيادي المتسخة باللعنات ، جميل أن نترك بصمات و نرحل بعيدا إلى حيث لا عودة، لكن أغلى الإنجازات و أكثر البصمات وضوحا تلك التي تولد داخل السجون ، السجن مكان لقضاء عقوبات مختلفة لجرائم ربما لم نرتكبها أصلا و أحيانا لا يعرف المساجين سبب سلبهم الحرية، لم اعرف بعد ماذا اقترفت جوارحي

[iii]- اليلق: هو الأبيض في كل شيء.

،لكنني أدركت أنه علي أن أقوم بشيء تحفظه الحياة بين دفاترها الكثيرة و ملفات المساجين، لأن السجن مكان مختلف جدا للإبداع و طريق آخر لمساعدة القدر على التقدم، وفتح المزيد من القضايا.

_ أقف للحظة ها أنا أتشاجر مع زميلتي في القسم الثالث ابتدائي وأبكي واعد نفسي أن هناك الأفضل، لم أكن أعلم أن البشر عبر السنين ستسوء أكثر.

النضوج أحيانا يُسبب جلد الذات الذي يولد نتيجة قيامنا بأفعال كنا نعلم منذ الوهلة الأولى أنها غابات من أشجار مسحورة، إن الوأد أفضل سياسة لكل الأفكار المجنونة، حياة الجنون والنزق لا تطول، بل الهروب كما يفعل الأولاد الصغار في الظلام عندما يخافون ظلالهم وهي تكبر وتتشوه في الظلام لتفزعهم، كل شيء يفتح أمام المرأة نوافذ لتتنفس كغيرها من الكائنات لكن سرعان ما تبدأ الرياح العاصفة المحملة بالدجل تدخل وتقتحم كل خلية فيها وتحارب كل زاوية مؤثثة جميلة.

كلما أتقدم خطوات أخرى أجدني أزداد غرابة و خوفا يجلب الكثير من الدموع و الضحك المؤلم ،أحدهم يسخر من براءة العقل و الآخر يعقد معك الصفقات بعبثية ، و نظرات مغروسة بكل زاوية تمارس هواية السلخ و الجلد و الكي كل صباح و مساء، كم صعب أن تكون مقتنعا بأنك ذاهب إلى الحج ، و تحلم أن تجد البيت المقدس في المركز و حوله الأبرياء يتشاركون

البياض نفسه حتى و إن كان لباسا فقط فالهدف هناك..... الكل يتمنى أن يودع حياة الخطايا و الطواف حول الجرائم الأنيقة، لكن تستيقظ من الحلم لتجد أنك تتصبب خوفا و هلعا من اختفاء البيت المقدس و اختطاف الأبرياء وتبخر الأمنيات بالتوبة و هطول المطر، و أن موسم الحج قد شارف على الانتهاء ، أين ستذهب؟

تعود للحلم من جديد؟ للأسف ليس باليد حيلة .... تعوض عنه بالبكاء لم يعد البكاء والنحيب وسيلة؟

_ الكل كان يخاف، لكن المرأة لما تكتب تلوح بشارة لكل من يخاف، ببراءة بعفوية قاتلة يظن كل من كان يخاف ارتياد الشواطئ المغلقة بإحكام أنه يمكن السباحة، هل هناك ضير في أن تكون المرأة التي تحس وتتألم وتفرح فتنفجر لتكتب فاكهة الجنة الممنوعة؟

من بإمكانه الإبداع أكثر ليجيبني؟

هل من دساتير القلم أن تجمع المرأة بين الدين والتفتح؟

نحب المرأة الكتوم، الودود، الخلوق، المتمنعة، وبالمقابل نتوسل إليها أن تقاطع ابتساماتها الرجال وأن تضفي بزينتها على مجالس الرجال، وأن تستضيفهم على أوراقها وتلبسهم حريرا برقة قلمها وتغدق عليهم بعذوبة الكلام، هل

أصبحت نصوص النساء تجعل الدونجوانات تدخل وفودا. وفودا في مملكتها الخاصة وحرمتها أفواجا؟

أعود طفلة كل مرة ترقص في ثوب قصير جدا، ظنا منها أنها لن تكبر في كل العيون ، لكن أصبحنا أكثر من الجاهلية بقليل....حيث تولد المرأة عارية ،و تظل عارية إلى أن تموت ، تظل كذلك لأنها تعامل دمية في مجتمع شرقي متعفن بدائي ، النساء في المجتمعات الشرقية ليست سوى دمى توزع في أعياد الميلاد والاحتفالات التي تُغتال فيها النساء، يلعبون بها كيفما شاءوا ويفضلون اللعب بها عارية من كل زينة وما من شأنه أن يجعلها تبدو مغلفة أكثر، كم هو دنيء مجتمع الرجال لست أدري كيف تكون السعادة مبتغى مع كائنات مصنوعة من حمم مثلهم ، لم أقترب منهم ولم أسمح لهم بالطرق حتى على بابي، ولم أسلم من بقع الدم الموجودة في كل مكان ورؤيتهم كوابيس وأشكالا تشبه المناشير والسيوف في كوابيسي، يعلنون الحرب على كل من تضع لهم إشارات مرور قوية في مملكتها ، كيف نسي العالم أن يصنفهم من أخطر الوحوش، ما أبشع الوحوش التي تتذاكى لتوقع بفرائسها الرجال هم الوحوش الوحيدة التي تكون فنانة ورقيقة في الإيقاع بفرائسها، هم الكائنات الوحيدة التي تغني أغنية الموت لضحيتها قبل أن تأكلها وهي لا تزال تنبض بل أعتقد أنه المفترس الوحيد الذي يأكل فريسته وهي لا تزال تتمنى وتحلم بالعيش الطويل، كم كنت أتمزق عندما ارى إحدى زميلاتي تذهب لتحضر طقوس موتها برجليها، إنهن يرقصن على الخشبة التي سيذبحن عليها بعد قليل كم كنت أضحك عندما

أرى حلم الايقاع بي في عيونهم ، كم هم أغبياء وجهلة، لا يعلمون أنهم أنصاف رجال و أشباه رجل، ومن رباني يمثل جل رجال الكون، لا يدرون أن أبي من سلب رجولة هؤلاء ومنه اشتقت كل الرجال، أحب أن أخربش على أوراق المسكوت عنه بكل حرية وأدب، لأن أبي علمني الفرق بين "الحرية" و"التحرر" و"قلة الأدب"، تعلمت شيئا في دراستي الجامعية وهو "فلسفة الرجال" تعلمت الكثير عن هذا العالم من الدموية والوحشية إنه نوع من المجزرة والاستعمار لم ينتبه له التاريخ ولم يدون عنه أحد شيء، كيف لم ينتبه إليه كل كاتب ،عالم أو مؤرخ.... لكن نسيت أن الخلايا السرطانية تولد معنا ولن نحترمها ونكرمها بالاهتمام والوقاية إلا بعد أن تثور وتستفحل فينا، بعدها يُخبرنا الطبيب بالعلاج والصبر أو يحدد لنا الأيام المتبقية من حياتنا القصيرة جدا.... لم تكن السنة الرابعة عاما فقط بل كان القدر سخيا جدا معي فأكرمني بسنوات كثيرة في عام واحد فقط كي أستمتع بالألم بطريقة أجمل تُدخلني في زمرة الصابرين والصابرين الذين "أعد لهم الله مغفرة وأجرا عظيما"، نعم بإمكاني أن أجمع الحروف إلى بعضها على عكس الكثير من الناس .... لكن لا أزال أخاف... لست أدري أحس أنني أدون التفا هات أكثر لأنني أحيد عن الذي وجب قوله منذ زمن بعيد، أقترب كثيرا ثم أجد كلماتي تنعطف وتبتعد وتأخذني إلى حيث لا أريد، لقد ارتفع الضجيج والقلم لا يتصالح في العادة مع الضجيج... سوف تكون هناك المزيد من النصوص العارية المرتجفة من صقيع الحقيقة، سوف تنبت الروايات في كل مكان، سيكون هناك دائما ربيع، لكن ربيعا لا

يقدم الكثير من الأزهار، إنما زهورا بلاستيكية تغزو أوجه الحقول و تملأ جوانب الطريق ،قريبا لن نحتاج إلى المطر، ولن يجد المطر أين ينزل ويستقر، لم يعد هناك سوى بلاستيك وأرضا من خشب.....

ـ نحتاج كثيرا لشيء يدعى "فلسفة الصقيع أو الثلج الملتهب" أريد أن أنثر الثلج في الزوايا الملتهبة كي تتعلم العيون كيف يكون بكاء السماء وكيف يتكون المطر؟ أريد أن أصنع لهم من الصقيع ألعابا عارية دون معطف أو قلنسوة كي يعرفوا معنى أن تكون عاريا وسط الجليد، أريد أن أدعوهم للرقص فوق بحيرة متجمدة، كي يعرفوا أن الرقص مستحيل فوق الجليد....

ـ نجيد كل شيء، ويحلمون بكل شيء حتى الذي ليس من حقهم.

على الرغم من أن محيط الجامعة يضم الكثير من أشباه المثقفين، لكن أتساءل إلى حد الآن لم كل هذه الأناقة في لغتهم أو بالأحرى لم لغتهم متبرجة إلى حد فاضح؟

ـ الحياة تأخذ منا الكثير والكثير من الجميل ولا تمنحنا إلا القليل، حتى لو اجتهدنا في تحطيم أعبائها لا نجد في أيدينا إلا شيئا من الفتات أو أجزاء صغيرة جدا من الحطام...

ـ جمعت كل قطع النرد وعلقتها في أرجل الطير كي يرميها أين شاء القدر، بعد أن تخرج الصدق وغادر تني قطع غالية جدا من الأحلام، كلما امتد

بساط الحياة وتنفس العمر أعمارا كلما استمتعنا بمفاجآت أكثر، كلما راقصنا إبداعاتها، كلما تأقلمنا مع الأدوار الموكلة إلينا باحتراف، لست أدري اخترقت رسالة مجهولة المصدر غرفة رسائلي الشخصية وعليها «ملصقة" تدعو لمحاولة أخيرة.... لكن من أصعب الأمور لدي أن أفتح نقاشا مع أمر سبق أن أقفلت بابه بالشموع المحترقة...

أصعب شيء أن تقبل دعوة من صديق جديد، فالأمر أشبه بأن تفتح بابا إلى الجنة أو بوابة إلى الجحيم ....

أحلام دخلت من أسفل الباب، أو حملتك أكف الحياة ووضعتك على ستائر شباكي... كفراشة متعبة أنت...أحلام دخلت في وقت متأخر جدا، دخلت في لحظة أقصيت فيها الجميع...نظفت خزانتي من كل الهدايا المزيفة وبطاقات التهاني التي تعفنت بين جوانب الخزانة....

بعت كل الصداقات القديمة المشوهة وضحية الحوادث التي لا شفاء منها في المزاد العلني ليشتريها كل من يتوهم السعادة في القرب من البشر.... أحلام أنت تشبهين إنسانة...اقتلعت كل ستائري الجميلة التي كانت تتراقص عليها نسمات الصدق والسعادة البريئة، وتركت بيتي مسكنا للغربان ومرقصا لذكريات تعذب أشعة الشمس المتمردة التي تحاول اغتيال مكانها ....

_ أحلام بعض الأماكن لا تغتال ولا تقبل الاغتيال، ولا يمكن لأحد احتلالها لكن يمكنك أن تقيمي بزاوية جديدة ، علني أتقبل فلسفات جديدة ، شيئا

من هذه الفلسفات تذكرني به أستاذتي التي لطالما كانت تجمع بعيونها كامل "قسنطينة "و كانت" قسنطينة" بكل ثقلها تصب و ترتمي على حواف عيونها كانت تؤمن بفكرة ترميها دون وعي منها بين الفينة والأخرى...."أن المشاعر تتجدد "أجل إنه قانون الحياة و المشاعر و كل ما يجمع بين الموجودات من علاقات ، فلسفة تجدد المشاعر بالغة القسوة لكن الألم يجعلنا نتقلب و نضطرب ونختلف عن الأموات ،كم تمنيت أن يكون باعة الحب مشفقون على زبائن الحب قليلا ، كم اشتهيت البخل لضيوف الحب جلادا ....

إنها لا زالت تعيش تحت تأثير مخدر ما ولست قريبة منها كفاية كي أتمتع بتلك الحصانة التي تجعلني أخترق جدول أحزانها ، إنه شيء غريب يمنعها من الخوض في كل ما له علاقة بالصداقة أو الحب ، إنها لا تتجرأ على مواصلة المغامرة حتى النهاية، تنسحب في منتصف الطريق وترسم نهاية عابثة رهن الأوهام التي أشبعتها ضربا دون لمسها ، أحيانا أحب أن أخبرها أننا حين نفشل في حمل السعادة وأرواح الآخرين بذواتنا يحدث الإجهاض بل واستئصال الرحم ومشتقاته...لكن هنا لا تنتهي الحياة...يمكننا زرعها في رحم آخر، أين نراها تكبر، سنشعر بأمومة مضاعفة ... لأننا في كثير من الأحيان نخفق في خلق الابتسامة كي نسعد وننجح في رسمها على وجوه الآخرين بسهولة، أحلام تبعدني عن حياتها كثيرا تطلب الابتعاد ،في حين تطلب عيونها مساعدتي و تحب كثيرا أن تراقبني خلسة من الشبابيك ، وتستمتع في كونها تراني من حيث لا أستطيع رؤيتها...تشبه كثيرا صديقة قديمة ،لكنها تختلف عنها في أغلب

صفاتها ، أحلام تمتلك شيئا مستورا غامضا لا أدري ماذا كانت لتسميه؟ سُرق شيء ما منها، آمنت بأنه لن يعود أم منحت شيئا من فنها وحرمته الخلود أم ماذا؟ أحلام تمتلك قناعة تشبه كثيرا قناعة "بغماليون" حينما يؤمن بأن الفن لا يجب أن يمتزج بكل ما ينزله من منزلة الكمال والخلود، تؤمن بأنها تتعفن لما تمتزج مع المخلوقات التي تطوق صوتها وتخنق إبداعها، ترسم منزلة لكل حروفها وكلماتها وتخاف عليها من أن تتجول في أزقة البشر، تأبى أن تنزل كلماتها إلى منزلة التأويل وتباع في الدكاكين ويشتريها كل مريض بالتأويل والتفسير، وكل موهوب باختراق حياة المبدعين والفنانين، لا تؤمن أن الفن للحياة وتؤمن أن الحياة تفسد وتشوه الفن.

أحلام تحمل جزء من كل واحدة من الذين تمنيت أن ألتقيهم هي تحمل أيضا قاسما مشترك بيننا... أحلام تخاف المجازفة.... إنها تخاف أن تتسلق التلة التي سقطت منها من جديد، تعبر عن كل شيء بالدموع التي تبدو منذ الوهلة الأولى أنها لن تنتهي، تغيرت كثيرا كما تقول .... ليتني تعرفت إليها قبل أن تصبح أكثر حيطة وحذر أو بالأحرى أكثر قسوة وتحجرا.... ما إن تفتح الحديث معي حتى تنتابها موجة من المشاعر والأمور التي تطردها بعنف قائلة:

أنت تذكرينني بشخص أكرهه ، إن الماضي ينهال عليها دون رحمة أو شفقة إنها أسيرة تداعيات لا علاقة للحاضر بها ، إنها تظلم معها كثيرا من الأشخاص تمارس سياسة الطرد والإبادة مع كل من يبدي رغبة في المكوث إلى جانبها أو

من يعرض عليها جلسة لتفكيك صمتها المخيف ،إنها تعاني من أزمة حادة في تحديد هوية المشاعر التي عادت لتجمعها بغيرها، أصبحت تبحث عن مصطلح جديد تطلقه على العالم الذي يحيط بها خارجا و الأصعب في هذا كله أنها شاعرة ...أجل ..إنها تكتب، كما تقول دائما" إن الكتابة ولادة " كانت تتعجب عندما تراني أكتب وأعبث بين السطور وأنهي هذه الفقرة وتلك وكأن أحدهم يملي علي، إنها لا تعلم أن الأقلام و الأرواح تختلف ،حتى الحياة التي نعيشها تختلف ،قد تختلف أقاليمنا أيضا و هواؤنا و ترابنا و مصادر إلهامنا و نحن في بلاد واحدة ، يبدو أنني أتخلص من كلماتي بسرعة... وأحبس عذابي وآلامي في الأوراق و أتركها تنام بسلام ، كي أستطيع أن أواصل العيش بسلام أيضا ....لكن أحلام كما يقول الكاتب العالمي "باولو كويلو" "البداية صعبة جدا لكن عندما نبدأ شيئا ما نعاني من صعوبة في التوقف" أحلام تفضل أن تبقي كلماتها معلقة على أكثر من جسر، لا تحب أن تضع لها نقطة النهاية كما إنها لا تهوى علامات الوقف كثيرا ، لا تشبه الكثير ...أحس أن الكل يصب في عينيها و ألف حكاية ترتجف بين شفتيها لكنها خائفة ربما صامدة.... لكن في وجه من؟ إلى أين ستستمر .... أحلام تدفع الكثير من الضرائب ...تبكي مثل الأطفال تماما ...لكن أخاف أن تقرر ألا تعود طفلة من جديد.... أن تقرر الغباء وأن تكون غبية ...أخاف عليها أن تصبح مثل الجميع ....

وفي الأخير أعود إليك أيتها البداية .....لأقول لك أنت تعبثين ، لا تشعرين كم أنت قاسية ، أخبرتك السبب وسؤالك كان أصعب شيء أجبت عنه بصدق وسهولة ، لم أكن لأتخيلها، أنت ضعيفة جدا كثوب سهرة قديم تعب من التمايل يمنة ويسرة واحتواء جسد متعب لا يهوى إلا مراقصة الآلام فاهترأ وأكلته خزانة من خشب يتيم، ولا يزال يقف وسط زحام الملابس الجديدة ويزاحمها ويصر على الاحتفاظ بمكانه بينها ، أحلام كل ثوب يهترئ يرمى....إلا ثوب السهرة فإنه يخبأ و لا يغسل إلا نادرا لأنه لا يلبس كثيرا، أنت أشبه بفساتين الأفراح، تلبسين الماضي بكثرة رغم أنه يشبه كثيرا ثوب السهرة الذي ليس من حقن أن نلبسه سائر الأيام و في كل الحالات ،تنتظرك تذكرة الحاضر والمستقبل الجميل ،طويلا أمام شباك نافذتك ، حتى صارت ثقيلة من الغبار و مليئة بملل الانتظار، يجب أن نغير الأثواب، وأن تعلني الحداد على ارتداء أثواب السهرة القديمة عندما تكونين سعيدة و جديدة، فمن الحماقة أن نشتري قطعة من فستان.

ـ كل عام يحدث في الناس تغير بطريقتين ونحو وجهتين مختلفتين ،إما أن يجففوا منابع الحمق ، و إما أن يتزوجوا من الحمقى ، لكني أتغير في كل ثانية تغيرا لا يشبههم أبدا ، تارة أعود لجهلي و شقاوتي وتارة أخرى ألبس ثوبا من هيبة تكبرني بالكثير من السنوات، أصعب شيء أدركته بصفتي طالبة جامعية ستشتغل مهنة حساسة جدا، أين أقف على منبر بإمكاني من خلاله أن أقتل أو أحيي أمة بأكملها ، تعلمت شيئا عن طريق الصدفة، لم يلقنه لي أحد من

الأساتذة ، بإمكان الأساتذة أن يمثلوا الشيطان وأن يمثلوا الملائكة، بإمكانهم أن يبنوا كنائس أو أن يهدموا مساجد، وأن يصنعوا النور أو ينشروا الظلام، أن يمنحوا الكعك البريء أو يمنحوا سما بالعسل يتجمل، ليست الكتابة شفاء للذات أو هروبا من أوحال الواقع أو عيادة للأمراض النفسية، بل الكتابة تغرق فيها السفن كي تكتشف العمق و ما أبعد وأحلك ظلام الأعماق ، الكتابة قاعة انتظار أشبه بالتي يمتلكها الطبيب تلتقي فيها بكل الأصناف و الأشكال وتعلمك أن تنسى الألم للحظات وأن تجتهد في البحث عن القاسم المشترك الذي يجعلنا نتألم و نسعد بالمرض، أدركت أن أخطر مهنة في الوجود... مهنة أن تكون «أستاذ"... شيء واحد كان يميز دفعتي _دفعة _2012 _شيء صعب التحديد ، هناك أشخاص كثر لا يتحطمون بسهولة، لا يأبهون لعادات المجتمع الشرقي وبلادته وعقم أفكاره المتدلية من كل مكان، صحيح أنه كان هناك نوع من التمرد يغلب عليها، لكنهم كانوا يفهمون جيدا كيف يعاملون الحياة وكل ما يمد بصلة لهذه الحياة، حتى السكون والجدران وقلاع الخشب كانوا يجيدون الحديث إليها ، كانوا يعلمون أين يرقصون وأين يصلون وأين ينامون، شيء نادر جدا كان محركهم طيلة هذه السنوات شيء يدعى" موسيقى " لكل منا موسيقاه الخاصة وآلاته التي ليس لها مثيل على الواقع ولا يحق لأي منا امتلاك نسخة عنها، لكل واحد فلسفة و مرشد خاص ودستورا خاصا... تهت أياما عديدة عن قلمي مرضت كثيرا لكنه لم يزرني ولم يسأل؛ إنها حالة غريبة تنتاب القلم؛ سيرحلون، لهذه الدرجة يمارس الزمن الركض، لا

أتخيلهم سيذهبون ، لم أتكلم معهم كثيرا ولم أرهم إلا قليلا، لست من أرادت لكن الحياة علمتني شيئا يدعى تقاربا مدروسا لأن الناس مثل القنافذ تحمل أشواكا مؤلمة جدا، لا نراها إلا عند الوخز، كل شيء بدا مشوش وسريعا جدا، هل سيذهبون دون عودة....أهنئهم وأفتقدهم لكن تخلصوا من شر تلك المدرسة، إنها أسوأ الكوابيس؛ أخذت منهم كل شيء وسلمتهم شهادة تقطر تعبا ومذلة تحمل اسم" أستاذ"، نعم أحبهم، فراقهم مؤلم لكن سيتخلصون من عذاب مؤقت قبل دوامة العمل؛ التي تمنيت أن تكون هي الأخرى بردا وسلاما عليهم؛ لم اعرفهم إلا وجوها تبتسم أو تبكي وأجساما تتحرك ؛ومع ذلك شيء عند تخرجهم يدفعني كي أبكي كي أصرخ بهم لماذا قررتم أن أعاملكم بتلك الطريقة أن أضع جدران من الاسمنت الثقيل بيننا ؛ أن تبدأ علاقتي معكم بالسلام عليكم وتنتهي بإشارة وإيماءة ورد سلام فقط ، لم يتركوا لي مجالا كي أعاملهم كما حلمت، مرت السنوات.....طال الغياب. تخرجت. كبرت. نضجت كثيرا تغيرت وتغير الحلم الذي كان عبارة عن فتات. بقايا.... شظايا. الحلم الذي أبدعت في وصف معاناته ونكباته.... بد العالم الجديد مختلفا جدا. نسيت كيف أكتب وكيف اقرا كتاب.

ارتفعت الشكاوى كثيرا.... نسيت تماما ما قدمته لبقايا حلم، نعم انكسرت الزجاجة من زمن بعيد وجذبت رائحتها الملايين من الرياح التي تتدافع لتنقل هذه الاحلام المشتتة...الى أرض بعيدة تنبت بها الاحلام في هدوء من يدري ربما ينبت بها حلم صالح أو حلما قابلا للاستصلاح.

تحدث بقايا حلم عن يوميات متواضعة...وشيء من الملل والألم وربما تشاؤم مفلس من كل الآمال.

تحدث أيضا واستضاف العديد من الاصدقاء...

لكنه يقف في النهاية كي يحذرك من الأصدقاء...آمن عن بقايا حلم أنه عسى ان نكره شيئا وهو خير لنا وعسى أن نحب شيئا وهو شر لنا.

بدأت تجربة العمل الآن...كان أبي صادقا في كل ما تخيله عني.... جميل أن تكون بداية لقصة أو حلم أحد ما.

جميل جدا أن تبيد وتهدم مقابر الأحلام بمجتمعنا.

لقد تشرفت برحيل الكثير...واستقبلت الكثير من جديد دون ألم.

الدراسة شيء والعمل شيء آخر تماما وشتان بين الاثنين.

قررت أن أرتدي مئزرا فلسطينيا وأرفع احلامي عاليا لتبدو كراية في موطن الحقيقة والواقع، وستمطر رايتي يوما وتأتي بالتغيير وستنبت الأحلام من جديد برائحة الثورة والانقلاب.

سأحمل في يدي غصن الزيتون.... وأترك للحمائم مكانا كافيا حتى تستريح على كتفي.

سأعلم أبنائي.... تلاميذي...إخوتي.... كيف نعبد الله.... كيف يمكن للبحر أن ينشق من جديد .... لم ينتهي فصل المعجزات، إذا كان فرعون

وأتباعه على قيد الحياة الى الآن...فمن الضروري أن يبقى موسى على قيد الحياة

مازالت هناك عصا تشبه عصا موسى.

إنه نفس الإله الذي وقف إلى جانب موسى ونفسه الذي يقف إلى جانبنا الآن.

"إن مجتمعنا بساطة يسرق أحلامنا ويضعها في جيبه ويتهمنا بالسرقة ويقول بكل وقاحة ويصرخ في وجوهنا أن توقفوا أيتها العير إنكم سارقون".

إننا نفقد صواع الملك.

أدركت الآن أن أحدهم قد صدق حين قال:

أشياء تأبى أن تموت وأخرى ماتت لكن كونها ميتة تقتلك، وأخرى ماتت لكن جثتها مازالت تسكنك، أشياء لفرط ما صنتها ستغدر بك لأنك لم تتخل عنها هي التي ستتركك.

عن بقايا حلم جاءت نهايته.... بعد سنوات عجاف...لم تكن هذه الكلمات تابعة له منذ البداية.

كنت قد توقفت لأن المطر وحده لم يعد كاف كي ينبت الأحلام.... كان الحقد تجاه الظلام والشياطين يكبر بشراهة.

تعرض الحلم إلى ظلم كبير.... إنه يرى صاحبته تتألم كثيرا.... لكنه يلتزم بالأدب.

كان حديث الولادة.... لم يكن مولودا كغيره.... لم يكن لديه الكثير من الوقت لم تنصفه الظروف.... لم تسعفه أيادي الأطباء.....مستواهم لم يكن كافيا كي يعالج الأحلام الجديدة.

كان مولودا هادئا.... تربى على الاخلاق والكثير من الخجل...دعاه الكثير كي يسقي له...اعتذر لأنه لايزال صغير.... بذل ما استطاع اليه سبيلا.... عابوه ولم يدفعوا له أجر ما سقى لهم.

أصعب وأخطر أنواع الأمنيات....

أن يتمنى لك المقربون الشر والابتلاء.

نسوا أن المعادلة بسيطة وهي كالتالي؛

كن واثقا بالله مؤمنا بالقدر خيره وشره.... فالثقة وحدها حظ عظيم.

الله تعالى يصيب الناس بنياتهم إذ هي حقائقهم الصريحة، وإذ هو وحده المطلع عليها فهو يوفق السعداء للنية الحسنة ثم يسعدهم بهذه النية على الوجه الذي يعلم أنه من سعادتهم، فإن لم يكن لهم الحظ الذي يريدونه فلهم الحظ الذي يلائمهم وربما كان زمام العافية بيد الإنسان عابسا من طلعة القدر والقدر يضحك له.

تحقيق الأحلام في مجتمع لا يعتد إلا بالتقاليد العرجاء مجتمع لن يشفى أبدا ولن يلد الأصحاء.

في مجتمع كهذا تحتاج أن تخلع نعليك وتمشي حافي القدمين. وأن تتجنب الفوضى والضجيج ولفت الانتباه.... لأنه إن استفاق أو أحس بالحركة خرب الطريق الذي تمشي عليه ومنعك من الوصول لوجهتك بشتى الطرق.

ما عاد لضيوف الحلم مكان.... تخلى عن بقايا حلم عن الأشخاص والأسماء التي تبناها لأنه اكتشف في الأخير أنها لعبة من ألاعيب القدر.

يحتاج الحلم لشخص يتقن الاختلاف، لشخص لا ينظر وراءه أبدا، لشخص يملك الشجاعة كي يواجه...كي يكذب المجتمع...

كي يكذب ما يؤمن به من أوهام.

ليس الحالم ما يقول عنه المجتمع أنه مريض طريح الفراش تدفعه حمى المرض وألمه للهذيان...كي يبلل الورق بالعرق...ويكلف القلم بالذهاب للصيدلية وشراء الدواء بالتقسيط.

بل الحالم يكسر تشابه الساعات، الأيام، الأماكن، الأشخاص وكل شيء.

أن يرفض توارث النظريات الخاطئة والروتين الممل، يقول باولو كويلو:

إن تشابهت الأيام هكذا، فذلك يعني أن الناس توقفوا عن إدراك الأشياء الجميلة التي تمثل حياتهم.

لو كان بإمكاني أن أصمم برامج الدراسة لرتبتها هكذا؛

-حفظ كتاب الله عز وجل أولا.

-تعلم السيرة النبوية.

-تعلم فن التجاهل.

-الأول دستور الحياة يعلمك فن صناعة الذات.

-الثاني يعلمك فن التعامل مع الآخرين.

-الثالث يعلمك أن تتعامل مع معركة الحياة.

تحتاج في مجتمع ضعيف أن تتعامل مع كل هذا وأن تحفظ كل هذا كي تنشئ طفلا سويا.... سوي التفكير.... سوي الكلام.... سوي الأحلام.

إذا كان قويا بالله لن يهزمه أحد.... إذا أراد أن يقتدي.... فلن يجد أحدا أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم.... وإذا تعلم كيف يتجاهل سيكبر سريعا ويقاوم أكثر.... ستتشكل لديه مناعة أكبر.

قبل كل شيء نحتاج أن نؤمن...ثم نتجاهل كل ممارسات القصص والتمشيط ثم نتحرر لتحقيق أحلامنا.

شيئا آخر نحتاج أن يعلمنا إياه آباؤنا فن الإدارة.

كنت يائسة جدا.....كنت أهرب من الواقع كثيرا.... كنت أهاجم فقط ولم أنتبه إلى ضرورة الدفاع أولا ثم إتقان الهجوم....

حدثني أستاذي يوما بالمدرسة العليا عن مبدأ الأحلام.... شجعني بالبحث عن مفهوم الإرادة...حديثه عنها بدا وكأنه يؤمن بها كركن من أركان الإيمان.

كتب أحدهم:

ما الإرادة؟

الإرادة من قوتنا الداخلية، التي لا يمكن أن تتأثر بالعالم الخارجي فهي آخر ورقة رابحة، لدينا إذ كان الفعل هو ما نقوم به حين يكون لدينا بعض السيطرة على الموقف فالإرادة هي الشيء الذي نعتمد عليه، حين تختفي هذه السيطرة فإذا استخدمناها في بعض المواقف التي تبدو غير قابلة للتغيير وسلبية، تستطيع أن نحولها لفرصة لمنح الراحة للآخرين تلك هي قوة الإرادة...لكنها تحتاج لمن ينميها علينا أن نستعد للمحن تلك هي قوة الإرادة.

علينا أن نستعد للمحن والاضطرابات، علينا أن نتعلم فن الإذعان، ونمارس الشعور بالبهجة حتى في الأوقات المظلمة.

غالبا ما يظن الناس أن الإرادة هي مدى رغبتنا في الحصول على شيء ما.

لكن في الواقع الإرادة تتعلق بالاستسلام أكثر من القوة فإرادة الخالق أقوى من قولك أرغب في الفوز أو أريد تحقيق هذا الهدف فما تريده قد لا يتحقق، الإرادة الحقيقة هي التواضع الهادئ والصمود والمرونة.

وقبول الموقف، أما النوع الآخر من الإرادة فهو الضعف المتخفي وراء ستار الصخب والطموح فانظر أي منهما الذي يتحمل قسوة العقبات.

اختلفت نبرة الصوت في بقايا حلم وتغيرت طريقة ووتر الكتابة والتصريح؛

صارت أكثر وعي.... أقلعت فيها عن تعاطي الهموم والأحزان.... لأن القارئ لا يهمه أن تحكي عن خيبتك أو عن الأناس الذين التقيت بهم...وأن تعد لهم كم مرة بكيت.

وكم من صديق خسرت وكم من حلم خذلك.... يجب أن تخبرهم أن الأمل لا زال على قيد الحياة وأن الدنيا ...لا تزال بخير وأن النبي صلى الله عليه وسلم صادق جدا عندما قال إن الخير لا زال بأمتي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كي تؤمن أن مجتمعاتنا مقصرة جدا في التعاون معنا لتحقيق أحلامنا.....

كم كان كتاب الملهمون ملهما للحالمين حين قال:

عندما تضيق عليك الدنيا بهمومها وتتأخر أحلامك وتزيد عثراتك وترى أن الطريق لن يؤدي بك إلى النجاة اجث على ركبتيك واستقبل القبلة وارفع كفيك إلى رب الجلالة ومحقق الأحلام.

ادعه بقلب خاشع موقن بالإجابة بأن يعينك على طريق الحياة وأن يحقق لك ما تريد وأن يسخر لك الأسباب التي تساعدك على النجاح ...

وأن يزيدك قوة وصبرا على ما يواجهك من عقاب، إنك بحاجة إلى أن يقف معك مدير هذا الكون، فهو أعلم بحالك وبما يضرك ويسرك.... إنك بحاجة

إلى هذا التواصل الروحي بينك وبين ربك لتعود إليك الطمأنينة والنشاط والهمة والطاقة من جديد.

تعاني أحلامنا من شيء واحد فقط لا أعرف كيف أقوله أو أصوغ له جملة تضمن مواقع الأحلام فيها بحيث تكون المعاني فيها معربة وصحيحة غير معتلة وظاهرة غير مضمرة....

يقول د/ماجد عبد الله:

وإن تاه قلبي.....

وظلت خطايا....

وضاقت همومي....

بين الحنايا....

سأغمض جفني.... وأنسى البكاء....

وأدفن حزني....

كما يدفن الصبح ليل الشتاء.....

لأني تيقنت أن الهموم...

تطول ولكنها لا تدوم....

وإن طال في العمر ليل العناء.....

فظني جميل برب السماء.....

هي هكذا أيامنا.....

فيها من الآلام ما يبدو ويخفى....

لكننا بالرغم من أوجاعنا....

يوما سنقطف....

من ورود العمر قطفا....

فغدا سنولد من جديد ويجيء ضوء الصبح...

يحملنا إلى أمل بعيد.....

مهما تعمق جرحنا...يوما سيشفى....

قل للذين تأجلت أحلامهم.

مازال في الأعماق نبض باقي....

أحلامنا كالزهر يعبق بيننا.....

تشتاق للسقيا.... فأين الساقي؟

أي طيف يمنح الروح الأمل.....

فنسيم العمر ولى وارتحل.....

ضاقت الأيام في أعماقنا.....

بين صبر وانتظار ووجل....

قد طوانا الحزن لولا قولنا.....

قدر الله وما شاء فعل.....

كثيرا تحدث عن بقايا حلم ولا أستطيع أن أضع خاتمة فلا توجد خواتم للحلم.....

لم أؤمن يوما بقدري وها أنا اليوم اعترف بما قدمه لي أبنائي وما سأكتبه بأسلوبهم وأخطائهم.....

سأعترف بعد كل الشكاوى أبشروا لقد تحقق الحلم.... ولم تعد هناك من بقايا للحلم....

لا يمكنك أن تكون حالما ناجحا.....

إلا إذا احترمت أحلام الفقراء والمساكين.....

ولا يمكن أن تجني قراءة إلا أجدت قراءة ضعف الآخرين.....

لا يمكن أن يسمع رأيك إلا إذا استمعت لأصوات الآخرين...

إلى كل الذين توقعوا مني القليل.....

إلى الذين حكموا على شخصي دون معرفة من أكون.... استغفروا لذنوبكم إن الله كان غفورا رحيما....

كان بإمكانكم أن تظهروا لي الطريق الصحيح بكلمة.... بنظرة حتى بصفعة إن لزم الأمر.....

سأستعير هذ الكلمات والتي لا أدري حتى من يكون صاحبها....

ربما تعلمكم كيف تنصحوا وكيف تغيروا بدل أن تعيروا....

كل واحد يتصور أنه من أهل الجنة لمجرد أن اسمه في بطاقة تحقيق الشخصية محمد وأنه مسلم بالوراثة....

وأنه يقتني مصحفا.... وينسى أن أول كلمة في هذا المصحف اقرا وألا يقرأ

وأن الله يقول اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

تحققت أحلامي لما بنى لي أبنائي هذا الصرح العظيم من الاعتراف بالجميل وأنا لم أقدم لهم سوى واجبي....

أعطيتهم اللغة والحروف فصنعوا لي معروفا لن أنساه ابدا...

تمت